محمد حسن خليفة

إعلان عن قلب وحيد

مجموعة قصصية

t.me/qurssan

الكنزي

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب :إعلان عن قلب وحيد
تأليف : محمد حسن خليفة
تصنيف الكتاب : مجموعة قصصية
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ x ٢٠
رقم الإيداع : ٢٠١٩/١٤٠٤٥
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 39 - 7

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

t.me/qurssan

إعلان
عن قلب وحيد

مجموعة قصصية

محمد حسن خليفة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

إلى أبي العزيز رحمه الله

t.me/qurssan

t.me/qurssan

«أنا ضواحي بلدة غير موجودة، التعليق المسترسل على كتاب لم يُكتب قط. أنا لا أحد على الإطلاق. لا أعرف كيف أشعر، كيف أفكر، كيف أريد. أنا شخصية في رواية غير مكتوبة، أنطلق في الهواء، متناثرًا ولم يحدث قط أن كنت، بين أحلام شخص لم يعرف كيف يكملني».

فرناندو بيسوا - كتاب اللا طمأنينة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

فكرة ظلّ ما

t.me/qurssan

t.me/qurssan

هل رأيت هذا من قبل؟

كان يتكـئ عـلى ظلـه الـذي يسـبقه، فينفلـت منـه، وَيجـري صارخًـا، طالبًـا النجـدة!

إنَّ ظلي يحاول سرقتي.

كيف، وأنت الذي يتكئ عليه، جيئةً وذهابًا؟

خدعنـي، في البدايـة أقسـم أنَّ لا رفيـق لـه إلَّاي، يقـول إن الوحـدة تنهشـه، ويسـتأنس بي في السـكون والحركـة.

يومًـا كُنـت أحـاول أنَّ أسـبقه، فأضـع قدمـي اليمنـى عليـه، فيمتـد ويقفـز للأمـام ككـرة مطاطيـة، لُعبـة خياليـة مثلـه، يكـره المنطقيـة، وينـط في أي حديـث عابـر في الشـارع، مـرَّة يسـب ببـذاءة فتنكـسر أسـناني الأماميـة، ومـرَّة يـسرق! كان ديـكًا أسـودَ ممـن يُسـتخدمون في المصارعـة، لم أكـن أعـرف أنَّ هنـا مصارعـة ديكـة، الرِّهـان عليهـا كسـباق الأحصنـة!

سـألته، فيـمَ تسـتخدمه يـا أحمـق؟ أنـا آكل كثـيرًا، لا أحرمك مِـن شيء، رده كان: إنَّ لي صـورة شـخصية، كيانًـا أحـاول أن أنفـرد بـه، أنـت تمنعنـي مـن الوصـول إليـه، أنـت كالجـدار الأصـم، لا تتزحـزح قـدر أنملـة.

نحن واحد.. إذا انسلخت عني، تموت، تنتهي!

t.me/qurssan

لا يهم. التجربة تستحق.

المشكلة الآن أن أجد جسدًا آخر، أقل تمردًا منك، يفعل ما أطلبه.

فكرتك مجنونة، لا أعرف إن كان عقلي هو من يصور لك هذه الأفكار الغريبة، لكن حتى كيف يصدر العقل فكرة ما لظل؟

بالأمس أطفأت أنوار الغرفة ما عدا مصباح في مواجهة المكتبة، فظهر أمامي بهيئته الغريبة التي تشبهني أحيانًا قائلًا: ما رأيك في أن تبيع لي المكتبة؟

- هل تمتلك مالًا؟

- كثرة انتقالي من ظل رجل لآخر، أكسبتني بعض المال.

- هل يحدث أن ينتقل ظلُّ رجلٍ ما لِآخر؟

- نعم بعد الممات، وأحيانًا أثناء الحياة!

- إذنْ لا يموت الظل.

- لا، نظريًّا فقط، من واقع خبرتي: الحالات التي سُجلت كانت بعد الممات، لكن لم تُسجَّل حالة أن ينتقل ظل لِآخر أثناء الحياة.

t.me/qurssan

- فكرتك خبيثة.

- أنا بصدد التجربة، أراك في حيرة شديدة!

- كيف نتحدث الآن وجهًا لوجه؟ أسألك فتجيب، أنت تتصرف كأنك كيان قائم بذاته، أنت حتى لا تبدو لي كمَن يحتاج إلى جسد.

- اعتقدتُ هذا، لكن على الصورة أن تكتمل، الجوهر هنا لا يهم.

- أنا لا أفهمك، بالأحرى لا أفهمني أنا.

- وهو المطلوب.

- اغرب عن وجهي الآن، سوف أُضِيءُ الغرفة هربًا من أفكارك المزعجة، إنَّها تدور في فلك الميتافيزيقية، إن كُنت أفهم الكلمة.

أُضيئت الغرفة، فذهب بعيدًا ينأى بنفسه، عن عقلي وغرائبيتي، ثلاث ليالٍ لم أره، علَّه الآن عاكف على تنفيذ فكرته، لن تتم إلَّا بي، أو من خلال أحمق يسلم له روحه.

هو يفكر بأنانية مفرطة، أو عن طريق المصلحة! ولديه ما يكفي من الغطرسة.

- تعلم الآن أي طريق أسلك؟

t.me/qurssan

- إذنْ، أنت تظهر الآن في أي وقت تريد.

- التجربة تنجح، ونعم هي، حتى وإن كانت شخصية.

- أنت لا تدرك العواقب، وقبل أن تتفوه ثانية؛ كيف أتعامل معك؟ هل أقول أنتَ، أم أنتِ، لا أقصد إهانة، لكن لا أستطيع تحديد جنس لك.

- كما قلت، أنا في طور التجربة، نادني كيفما شئت، أنتَ مناسبة.

- لا تصور أنني أتعامل مع مسخ بالتأكيد، أنا لا أعرف كنهه بعد، لكن حتى لا تخلق هذه الصورة.

- تعامل معها على أنها فكرة، هل قرأت لنيتشه؟

- لا تحاول، نيتشه بريء من شطحاتك الفكرية.

- يبقى له يد في الأمر، مهما حاولت إبعاده.

- حتى هذه اللحظة أنا مؤمن فقط بوجودك كظلٍّ.

- إن قلت لا أهتم، فهذا يعني أنني أكذب، تصديقك للفكرة هدف أسمى لديَّ.

- إذن الصدق، الكذب، الأخلاق، الشرف، الأمانة، كُلّ هذه الأشياء عندك مهمة.

t.me/qurssan

- نعم وإلَّا كيف أحيا بين بني البشر، أنا أبني كيانًا ظاهره إنسان، لكن يفوقه.

- آه رأسي أصبح ثقيلًا.

- إنَّها القراءة!

- أنتَ تتصرف مثلهم.

- أنا أتعلم.

- الشك يدفع للبحث. وللتعبير عن أفكارك، يلزمك الشجاعة. الوحدة شيء طبيعي، وعليكَ أن تتقبل فكرة التخلي عنكَ.

- وحتى تنفذ فكرتك، ينبغي أن تمرر هذا السهم السَّام إلى عقلي.

- لا شيء يرضيك، حتى الحرية ليست بحل كافٍ للمشكلة.

- أي حرية تقصد؟

- حرية دون قيد أو شرط، كاملة!

- إذا كُنت تعتقد أن الحرية الكاملة ستكن من نصيبك، إذا حصلت على كيانك، فأنت واهم. عيشك مرهون بي، عليك أن تفهم، ولو صدقت أن التجربة ستنجح، وتنسلخ

t.me/qurssan

عـن المنشـأ والأصـل، هـذا يعنـي شـيئًا واحـدًا، أننـي سـأموت، لا حـل غـيره، وبمـوتي تفشـل التجربـة.

- الحيـوان كـما الإنسـان لـه ظـل، ولا أمانـع أن أتخذهـم فئـران تجـارب، حتـى تتحقـق الغايـة، سـوف أقـول كـما تقولـون: إنَّهـا مجـرد وسـيلة.

نمـت بعـد حديـث مُرهـق مـع ظـلي، مـن يحـاول سرقتـي، كُنـت قـد أطفـأت النـور، مـا كان يـدور في ذهنـي حينهـا، مـاذا لـو نجـح؟

حاولـت طـرد الفكـرة، كـما أطـرده. لا فائـدة. تمـددت عـلى السريـر بعـد أن نزعـت عنـي المـلاءة، انفتحـت اللمبـة الأماميـة في البدايـة، كان أسـودَ، نعـم شـكله، عينـاه كانتـا كبيرتـين، تحملقـان بشـدة، قدمـاه صغيرتـان، كذلـك أصابـع يـده، رقبتـه طويلـة، لا تناسـب وجهـه، إذا مـددت يـدك فيـه، ربـما تَعْـبر للناحيـة الثانيـة، أو تختفـي في ظلـه!

التجربـة نجحـت، وأنـا لم أمـت، لا أسـمع مِـوَاء القطـة، كانـت جثـة هامـدة، هـو مـن فعـل هـذه الفعلـة، وهـا صوتـه يخـرج نحيـلًا ثـم بعـد دقائـق يـزداد خشـونة، وزنـه لا يتعـدى الكيلوجرامـات، يطـير لـو نفخـت فيـه، رغـم هـذا يتغلـب عـلى الجاذبيـة.

t.me/qurssan

التجربة نجحت مع الحيوانات يا رفيقي في الظل، طوال الوقت تعتبر بحسابات خيالية أنني الظل، لا، أنت ظلي لا أنا.

الآن، روحك مقابل كيان كامل يفوق تصورك، اعذرني، قد امتلأت بكم، لا هروب من الفكرة، حاولت، لكن حتى أنا صنعت لنفسي شيطانًا يأمرني، علَّه جنون، محاولة، في النهاية هي فكرة ظل ما، ستنتهي لا بطرقعة أصابع ولا إرادة مني.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

موت نجمت

t.me/qurssan

t.me/qurssan

كانت تفسر لي أحلامي مهما بدت صعبة وساذجة، وتتركني كثيرًا أتفكر فيما قالته، حملتني صغيرًا على كتفها ودارت بي على مستشفيات الأطفال في القاهرة، حتى أذن الله بالشفاء، وكأي طفلٍ صغير أحلامه لا تتعدى الحلوى والنوم كما يشتهي والسهر كذلك، كانت رغبتي في السماع لحكيها أقوى، حكايات قديمة دارت في القرية، وحكايات خيالية ذُكرت في ألف ليلة وليلة، حفظتُها في مكتبة أبيها الشيخ علي، المتفقه في الدين وعلومه، وكبير عائلته وقريته، يلجأ إليه العمدة كثيرًا متحايلًا عليه في الدين، محاولًا ضمه إلى عباءته الكُحلية التي إذا دخلتَ فيها لرأيت كم أرض أصبحت في حيازته، وكم حُجَّة بيت زورًا دخلت جيبه، وكم محاولة زواج من قاصرات تنتهي بعد سنة، وبعض القروش في أيد العائلة حتى تسكت وترضى بما قُسم لها، إلَّا أن محاولاته مع الشيخ علي فاشلة، لم يجد طريقًا واحدًا يستطيع أن يسلكه، إلَّا ويجد فيه الشيخ قد ظهر، وسمعه الناس، وتجاوبوا مع حديثه، ورضوا بقضائه، فيعود العمدة إلى بيته جالسًا على كنبته الموضوعة أمام البيت مقصوع الجسد، يفكر في طريقة جديدة علّه يخرج منها بنتيجة مع الشيخ علي الذي ينط له في كل كلمة.

t.me/qurssan

حكت الجدة لي مرة عن بيتهم الواقع في الناحية الغربية من البلدة، الذي بات يسكنه الآن أكبر بناتها راوية، بعد أن تخلت عنه راضيه، وأنهم في فترة بنائه وجدوا سردابًا قد فُتح بعد حفر الأساس، ومن سرداب لآخر، وجدوا مقبرة بها من كنوز مصر القديمة ما يجعل الحكومة تفتتح مُتْحفًا جديدًا، ويسمونه على اسم زوجها الشيخ عبد الله، وقد تم تقسيم الكنز على أفراد الأسرة بالتساوي، من أخوات الشيخ عبد الله وبنات وأولاد الجدة، أما هي فرفضت أن تأخذ شيئًا إلَّا قطعة من المرمر يعود نسبها إلى الملكة «موت نجمت» زوجة حور محب آخر ملوك أسرته. حين سألتُها: لِمَ وقع اختيارك على تلك القطعة؟ سرحت طويلًا، وقامت من مجلسها تدور في الغرفة، تنبش في أشياء قديمة، ترمي ملابس، وقطعًا ذهبية، وآنية فخّارية، حتى عادت لسريرها والتفت بالملاءة ثانية.

كان كيسًا من الصوف له رقبة تُقفل بحزام، لونه أبيض باهت، تنهّدت ناظرة إليَّ بعينيها الزرقاوين، وبهدوء شديد، راحت تُخرج من الكيس قطعة مرمرية، ترفعها عاليًا ناحية النور، وتنطق الاسم بوضوح «موت نجمت»، أخبرني والدك أن البعض يظن أنها شقيقة للملكة نفرتيتي، هذا حين كان يدرس الآثار، أطلعني ساعتها على تقارير

t.me/qurssan

ورسومات باللغة الإنجليزية، لكن لم أفهم كلمة إلّا بعد أن قام بالترجمة، وبعد أن فرغ، تأكد لي أن اختياري لتلك القطعة كان في محله، وجالبًا للحظ، أحيانًا كانت هي مصدر السعادة، كنت أتخيل وأنا ممسكة بتلك القطعة في يدي قصة من ليالي ألف ليلة وليلة، وأُنصِّب نفسي مكان «موت نجمت»، وأتمثل منها ومن أختها. جدك ظن فيَّ مرات عديدة أني جُننت، وعليه أن يطلب المارستان ليضعوني فيه.

كنت أضحك قائلةً: أنت تتاجر فيه، لكن لم تشعر يومًا بجماله.

أمسكتُ بيدي وبدأت تقرأ الكف، لم أكن أعرف أن لها هذه الموهبة، كانت تقف في المنتصف حائرة، وتعيد الخط من أوله، تربكني بهذه النظرة، وتسرد لنفسها كلامًا لا أفهمه، غطّت كف يدي مرَّة ومرتين بمنديلها، وأشعر بثقل أسفله، فتنزعه كالمجنونة مبتسمة، وتعود اليد فارغة خفيفة. كانت نظرة طويلة مُربكة وتحوي أشياءَ كثيرة، أنتظر أن تفصح عنها.

بعد أن فرغت ورمت يدي، هبت واقفة على سريرها النحاسي، سندتها حتى نزلت على الأرضية، فكانت مشيتها كالمنتهي من حلقة ذكرٍ صوفية، وتوقفت في آخر الغرفة عند شباك ممتلئ بالقضبان الحديدية الصدئة، مفتوح

t.me/qurssan

على نور الفجر، شربت من القلة الموضوعة في الصينية، وأخرجت القطعة المرمرية مُقبِّلةً إياها وتحتضنها، كأن هذا مساغها، واضعة إياه على صدرها ولا تود فراقه، وبصوتٍ عذبٍ يأتي من بعيدٍ نادتني، فأقبلتُ وبي رهبة، أسندت ذراعها على كتفي، أشعر بسخونةٍ شديدةٍ تعبر منه، وبعينٍ ضيقةٍ، وشفاهٍ منسدلةٍ، وأنفاسٍ متقطعةٍ راحت تقول: كانت صغيرة، تمنت طفلًا وماتت وهي حامل فيه، عظامه الطرية في طور التكوين، حفظها التحنيط مع الجثة، وهذه القطعة وجدوها في المقبرة، محفوظة في صندوق خاص من الأبنوس، كف يدك يبعث في نفسي ذكريات حاولت طردها، ولم أفلح، كبيعي للقطعة في محاولة بائسة للتخلص مما توحيه في نفسي الموحشة، رؤى بصرية تأتي من بعيد جدًّا، قديمة العمر والرائحة، إلَّا إنها تتمثل أمامي حية، كلما ارتديتها على صدري، كأن تخرج من عصا موسى ثعابين تلقف كل ما يسعى، نار مشتعلة، أنت زدتها بيدك النحيلة هذه.

- ماذا رأيتِ؟ كلامك يرعبني، أي جو مقبضٍ هذا الذي تحاولين وضعي فيه؟

- مُقدر ومكتوب!

- خرفانة! المارستان طريقه قريب يا جدة!

t.me/qurssan

- لم يسمعني ساعتها، هج في الغربة!

- مين؟

- أنت مثله، تموت الشجرة، وتنبت بذرة!

- اتكلمي الله يرجعلك عقلك، ويثبته عندي!

- أبوك، قال عني أيامها إني مجنونة، اليوم تقولي إنت خرفانة، جدك حبسني في الغرفة، باب يهد جبل، وشباك قضبانه حديد، مِش مجنونة أنا ولا خرفانة، لما قرأت اللي في إيده، هيموت في الأربعين، ما كله مقدر ومكتوب، تفرق إيه أربعين ولا مائة.

- حكيتي موته يا جدة؟

- مِش بيدي، ده روحي، هتمنالـه الموت برضه؟! ابني البكر وعكازي، بس ده مصيره، كان لازم يلبس القطعة في رقبته، ويسمع كلامها وكلامي!

- مين دي، وليه يسمعها؟

- «موت»! ما ليش طاقة أنا أمنعها!

- دي ماتت من كم ألف سنة!

- ما أبوك مات، وأنت هاه قدامي، نسخة منه.

t.me/qurssan

- تقصدي إيه؟

- «موت نجمت» ماتت آه، ومعاها طفلها، وأبوك مات آه، بس ساب طفل، أنت، والقطعة دي يتمد سلسال موت باللي يلبسها، مش شرط يكون من النسل، لكن إذا اختارته ولبس القطعة في صدره، سلسلها يطول. أبوك رفضها، وهجَّ من وشي، كان لازم يلبسها، يجرى إيه لو دور على قصتها، ولا المقبرة الكبيرة اللي فيها حاجتها.

- يعني يا جدة القطعة طريق للمقبرة؟

- يدك هي الطريق، القطعة وسيلة لاختيار الشخص المناسب. جدك منعني، بس اتمسكت بيها، حافظت عليها لأجلك.

- أنا؟! وليه؟ ما كفاية أبويا!

- يا بني ما قلنا مقدر ومكتوب، طريقك كده، ويدك هتوديك إليه.

- هتجن يا جدة!

- نفرتيتي أول الخط، وحتمًا ولا بد هتوه، البس القطعة في صدرك، يبان ليك طريق خلف طريق، اقرأ آيات أبوك، موجودة في جسدك علامة. آمن إن لـ «موت نجمت» حق في الظهور، الحق يرجع لأصحابه ولو بعد ألف سنة.

t.me/qurssan

خاضعًا لها، عرتني من ملابسي، وفي مرآة كبيرة ظهرت الآيات على ظهري، بعد أن مسّت جرحًا قديمًا، واضعة عليه القطعة المرمرية.

وعلى كف يدي انشقت الخطوط وخرج نور عظيم، ونقل ما في الظهر أمامي، دق عنيف داخلي، وقدمي متجمدة، بين الخطوة والخطوة مائة سنة، شيئًا فشيئًا أسقط في بئر لا آخر له، وصوت الجدة في كل ركن، يتبعني أينما حللت، تغطسني فيه وتدعك جسدي بطمي النيل، وتتلو ما لا أفهمه.

صحراء واسعة، أحمل فأسًا وحبلًا متينًا، أنظر في يدي بين لحظة وأخرى، أقيس مسافة قرب حجارة ضخمة كتلك المستخدمة في الهرم الأكبر، نزعت الفأس وضربت بها على الأرض، شبرًا شبرين، تتسع الحفرة، الآن تبدو على شكل قبر، العَرق يغمر الجسد والقطعة، الأرض تنفتح، قريبًا يخرج من باطنها آية تشهد على «موت نجمت».

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

بَيت العجوز

t.me/qurssan

t.me/qurssan

لَم يكن إلَّا بيتًا قديمًا، هكذا اعتقدت!

لكن بعد فترة من العيش فيه، تأكدت أنه أكثر من هذا، لا يهم كم هي الحوائط متهالكة وبها كثير من الشروخ، ولا أرضية البيت التي تُحدث صريرًا يَسمعه المارة في آخر الشارع المسمّى شارع الحديقة، ولا اللون الأصفر العالق في السقف، وتلك الشبكة الكهربائية القديمة الموجودة به. مكون هو من طابقين، يحلو لي العيش في الطابق الثاني، أحب هذا البيت بما عليه، ربما يكون الأمر مجرد التعود، لكن لا هذا سخيف، التعود يكون لسبب، وفي رأيي السبب هو أنني أحببته!

ربما هناك شيء آخر كان سببًا، وهو تلك الحديقة التي تحاوطه، فأشجار البرتقال والليمون ورائحة الريحان والفل تساعدني على النوم بأريحية تامة، وتعطي البيت رائحة خاصة ومحببة.

جاري مزعج جدًّا، لا أحب الحديث معه، وأكره تلك الكلمة التي يرددها كثيرًا: بيتي مثالي!

كم هي مزعجة، أكره أن يكون كل شيء مُرتبًا، وذا لون يلمع. بيت مرعب أن تكون به كل هذه التحف، لا تستطيع الاقتراب من أي قطعة، فقط مسموح لعينيك المشاهدة،

t.me/qurssan

وبعد لحظات معدودة ستصاب بالملل وربما بالتأفف: كم هو بيت منظم، ويُدار بالساعة.

لا ذرة غبار عالقة لا بالحوائط والأرضية، ولا بتلك الملابس الأنيقة.

يا للأسف إنه تمثال يعيش في متحف!

وتلك الفتاة التي لم تتزوج أبدًا في المنزل المواجه لي، تظل تردد: هل ما زلت لا تفتقد الأحداث الجارية في المدينة؟

وردي دائمًا لها كان: لا، إنها تصيبني بالكآبة!

وردها دائمًا عليَّ: ربما العزلة مفيدة، لكن في النهاية هي قاتلة.

ولا يكون مني إلَّا الصمت.

أسمعهم وهم يطلقون عليَّ في الشارع اسم العجوز الذي أحب العزلة، واختار الصمت رفيقه، وعشق البيوت القديمة المتهالكة.

المالكة أخبرتني سرًّا عن هذا البيت، لا أعرف إن كان مجرد دعاية أم حقيقة!

« لك هذا السر أيها العجوز»، قالتها ضاحكة.

t.me/qurssan

وبيني وبين نفسي أقول: إذا كنت أنا العجوز، فلماذا تُسمين أنتِ؟

- السر أن هذا البيت، لن يدع صاحبه يغادره في مرَّة دون عودة إليه، أو يُقْدم على بيعه!

- ماذا، كيف؟

- لا أعرف السبب يا عجوز.

- لكن لحظة من فضلك، أنتِ المالكة لهذا البيت، وتقولين الآن إنه لن يدع صاحبه يغادره دون عودة، أو يقدم على بيعه، وأنا أرى الآن أنكِ في محاولة لبيعه.

- هذا صحيح.

- اسمع البيت لا يترك إلَّا مَن أحبه فقط، أما مَن كرهه فلن يَسمح له بالمكوث فيه ولو لدقيقة! واليوم أنت تُكمل فيه شهرك الرابع، أي أنه لم يحبك فقط، بل صرت صاحبه.

- لكن ما زلت لا أفهم، كيف يتركك هكذا تبيعينه، هل هو لا يحبك، ما أعرفه أنكِ عشتِ فيه ثلاثين سنة، عمرٌ بحاله!

- وهل تعتقد أنني سوف أحيا بعد بيعه؟

- آه، فهمت الآن، لن يترك صاحبه إلَّا بعد الموت.

t.me/qurssan

- ويطمئن أنه في القبر يا عجوز.

- سئمت من قولك هذه الكلمة، أنتِ أكبر مني بخمس سنوات، فمن منا العجوز إذنْ؟

- أنت تفتقد للياقة!

- وأنتِ تحسبين نفسكِ مرحة.

- ....

- متى نوقع العقد يا سيدتي الجميلة؟

- امم، اترك لي أسبوعين، لديَّ قريبة في الريف أود زيارتها قبل أن تنتهي المدة.

- حسنًا، لكِ كل الوقت.

- عظيم، إذنْ عليَّ المغادرة.

- عذرًا، لديَّ شك، في الحقيقة كل ما قولتِه لا يندرج تحت الشك، بل أُسميه خرافة.

- آاه يا عجوز، اسمعني، لن أخبرك إلَّا بجملة واحدة: سوف ترى بنفسك.

- جيد، الغد ليس ببعيد.

- سلام.

t.me/qurssan

غـادرت المالكـة، ولمـدة أسـبوعين لا أفكـر إلَّا في البيـت وتلـك القصـة الخرافيـة.

مـن الأمـور الغريبـة التـي حدثـت في هذيـن الأسـبوعين، أن البيـت في أسـبوعه الأول بعـد أن غـادرت المالكـة كان في حالـة غـير طبيعيـة، حيـث إنني لَم أعـد أسـمع صـوت صريـر الأرضيـة الخشـبية، والكثـير مـن الشـقوق في الجـدران اختفـت، أو شُـبِّه لي أنهـا اختفـت، وذلـك اللـون الأصفـر العالـق في السـقف صـار أبيـضَ كأنـه دُهـن مـن جديـد. الأغـرب أنـه مـع بدايـة الأسـبوع الثـاني مـن المـدة المحـددة، ومـع اقـتراب عـودة المالكـة، عـاد البيـت إلى حالتـه القديمـة، بقيـت لحظـات أحـدق في كل ركـن فيـه، لَم يكـن قـد تعـودت بعـد عـلى حالتـه الجديدة، ومـا إن عـاد إلى سـابق عهـده أحسـست براحـة، لكنـني في نفس الوقـت شـعرت أن البيـت يُهيّـئ نفسـه للحـزن، ومـع مـرور أيـام الأسـبوع الثـاني تأكـدت أنـه يعيـش هـذه الحالـة.

غريـبٌ هـذا بحـق، البيـت يشـعر مثـل البـشر، يحـزن ويفـرح، بـل يصـير رفيـق لمالكـه بتقـدم العمـر.

اليـوم آخـر يـوم مـن المـدة المحـدَّدة، في السـاعة التاسـعة صباحًـا كانـت المالكـة أمـام البيـت، نزلـت مُسرعًـا لهـا، وقـد اتشـح البيـت بسـتائر سـوداء، ولَم تُفتـح نافـذة لعبـور شـعاع ضـوء، كنـت قـد ارتديـت بدلـة سـوداء ولا أعـرف لمـاذا

t.me/qurssan

اتخذت قرارًا مثل هذا، أأكون أنا أيضًا في حالة حزن مثل البيت؟!

فتحت الباب، ووجدتها بكامل أناقتها، غريبة!

هي تبدو في سن العشرين، ما هذا الجنون! ترتدي فستانًا أبيض يشبه إلى حد كبير ملابس الأميرات، لأول مرَّة أركز في عينيها وأكتشف أن لونيهما أزرق، شعرها كان برتقالي اللون وذات نمش على الوجه، مدت يدها، قبلتها، ودعوتها للدخول لبيتها.

- أرجو أن لا أكون قد سببت لك أي إزعاج، لكنني وددت أن أنجز المهمة.

- لا لم تسببي أي إزعاج، أنا كنت في انتظارك.

- حسنًا، هذا هو العقد لتراجعه أنت، أو ترسله إلى المحامي.

- لا نحتاج إلى محامٍ، سوف أراجعه أنا.

بقيت في مكاني أراجع العقد، وهي انطلقت في البيت تتفحص كل ركن فيه، وتلمس الجدران بشقوقها، وتستنشق رائحة أشجار الحديقة، وتقول: هل تعلم أن هذا الشارع قد سُمي بشارع الحديقة نسبةً لحديقة البيت.

t.me/qurssan

أجبتها بهزة رأس خفيفة، وعادت تدور بعينها في البيت، توقفت عن المراجعة، ونظرت نحوها، أقول في سري: هي تودع البيت، بيتها، أعلم بهذا.

التفتت قائلة: أرى أنك انتهيت.

- نعم.

- حسنًا أيها العجوز الأنيق، لنوقع العقد.

- بسطت الورقة على المنضدة وأخذت القلم ومضيت، ومضت هي.

ابتسمت لكنها ابتسامة حزينة.

قبل أن تغادر البيت، سألتها عن وجهتها، فقالت: من أسبوعين قلت لك سوف ترى بنفسك، اليوم لا وجهة محددة لي، فقط عليَّ الانتظار، وحين ينتهي الوقت سوف تعرف إلى أين وجهتي.

غادرت، وعاد كل شيء إلى اللون الأسود، لَمْ تزرنا الشمس هذا اليوم.

بعد ثلاثة أيام وصل لي خطاب من محامي المالكة.

في البداية كنت أحسبه بخصوص تسجيل العقد، لكن حين قرأته اتضح لي غير ذلك.

t.me/qurssan

سيدي العزيز، مالك البيت الجديد، أنا مُحامي المالكة السابقة للبيت، يؤسفني أن أخبرك أن السيدة المالكة توفت بالأمس في فندق قريب من بيتك، أتمنى أن تحضر الجنازة، فهي لم تكن على علاقة بالكثير.

تحياتي لك، متمنيًا أن تنعم بالبيت.

حضرت الجنازة، وبالفعل كانت صغيرة خالية من الناس، لَم يحضر إلَّا المحامي وقريبة المالكة من الريف، وأنا.

في الجنازة أدركتُ أنني بالفعل رجل عجوز مثل ما كانت تدعوني، حين هممتُ بالمغادرة استوقفتني قريبة المالكة من الريف.

- أنت إذن المالك الجديد للبيت؟

- نعم.

- أتعلم، هو لعنة على صاحبه؟

- بالطبع أعلم، لقد أخبرتني بكل شيء.

- لتجهز نفسك إذنْ لملاقاة نفس المصير.

عُدتُ إلى البيت سريعًا، وبقيت فيه لا أغادره إلَّا على فترات متقطعة.

t.me/qurssan

الآن أنا في السبعين، مرَّ على بقائي هنا ما يقرب من العشرين عامًا، وأشعر بأن النهاية قريبة، من عشر سنوات اتخذت القلم والورقة أصدقاء لي، وبمساعدة البيت مرَّ الوقت سريعًا.

أنا أكتب إليكم الآن وأنا على وشك المغادرة نهائيًا،

نعم فقد قررت بيع البيت، وأبلغت المحامي بقراري هذا.

أرملة تبلغ من العمر خمسين عامًا، لَم تُرزق بأولاد من قبل، ها هي تريد أن تشتري المنزل، دون سابق تجربة البقاء فيه .

تم البيع بسرعة، ولم أبلغ المالكة الجديدة بأي شيء، هذا هو قدرها، سوف تعرف قريبًا ما سيحدث لها.

جهزت ثلاثة خطابات:

الأول للمحامي أبلغه فيه أنني بعت البيت، والمالكة له سوف تأتيك قريبًا لتخلص الإجراءات المعتادة، وأتمنى منك أن تحضر جنازتي إن مت في العاجل القريب.

الثاني لقريبة المالكة الأولى من الريف، أخبرها أن البيت قد تم بيعه، ولا سبيل للتخلص من هذه اللعنة، وبما أن البيع قد تم فموعدي قد حان، أتمنى أن تحضري الجنازة،

t.me/qurssan

وأن تخبري المالكة الجديدة بكل ما تعرفينه، لَم أقدر أن أبوح لها بكلمة.

قبل أن أكتب الخطاب الثالث، فكرت كثيرًا لمن أكتبه، بعد فترة قررت أن أكتبه للمالكة الجديدة، خوفًا ألَّا تخبرها القريبة من الريف بشيء.

بدأت كتابة الخطاب، وحكيت لها كل شيء أعرفه عن البيت، بل حكيت لها عن السنين التي قضيتها في هذا البيت، وعن آخر لقاء لي بالمالكة القديمة، دعوتها أيضًا أن تأتي الجنازة، فلا أصدقاء كثيرين لي في هذه الحياة.

إلى البريد توجهت وأودعت الخطابات جميعها على كل العناوين، وعدت إلى الفندق القريب من البيت أنتظر الموت!

***

t.me/qurssan

لحظة في حضن الحياة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

انفتحت عيناهُ على فراشةٍ خَرجت من يومٍ أو يومين مِن شَرنقتها، وربما غدًا تنتهي حياتها. خموله والبرد الشديد المُصاب به يَرجع سببه إلى بقائه أمس في منتصف الصالة عاريًا من كُلّ شيء، متحديًا بهذا حرارة أغسطس اللزجة، كان قد فتح مَروحة السقف توزع الهواء على عِظامه التي أصبحت هشةً.

ينتظرها منذ ساعتين حتى تلعب حركتها على رُقعة الشطرنج الزجاجي، آخر دور هزمته، الآن هو مُتقدم عليها بفارق نقطة واحدة.

- ليلى، لن تطير الذُرة المقلية التي تعدينها، سأشتري لكِ من على الكورنيش، دوركِ حان منذ مدة!

- ما لكَ تنتظر بلهفة كي أغلبك ثانية؟

- كان هذا قديمًا، الآن أنا المتقدم.

- انظر لهذه الحركة، ضاع الفيل! يجب أن تعتني بالملك وتوفر له الحماية. أف حَر جدًا يا جابر.

- لو أنك وفرت ثمن الأريكة، لكنا اشترينا مكيف الهواء بدل المَروحة الخربة، لا نأخذ منها إلَّا الصرصرة.

t.me/qurssan

- كـوني رحيمـةً بي وبعظامـي، لـن أحتمـل الجلـوس في غرفـة النـوم، لـذا اشـتريت بالمـال الأريكـة!

- تهانينا لك، انعم بها.

- ستشـكرينني في الشـتاء حـين تجلسـين بجـواري متدثـرة بالبطانيـة ونحـن نشـاهد فيلـم السـهرة، أعتقـد أنـه سـيكون عـن حـرب عصابـات شرسـة، ودم في كل أنحـاء الصالـة.

- أنت تفتقد للرومانسية.

- قديمًا كُنتُ أشتري لكِ الورد.

- نعم، الآن تشتري لي البصل والثوم.

- أُحبكِ يا ليلى.

- أنا أيضًا يا جابر، أخاف الموت قبلك!

- لا تقولي هذا، الحياة طويلة.

- نعم، نحن الآن في الستين، طويلة أو قصيرة سأستمتع.

- الذُرة المقلية تُطرقع كأنها فشار، دقائق قليلة وتبدأ السهرة.

- سـأحضرها، وعـدني أن تُحـضر لي في الاسـتراحة مـن يديـك قهـوة.

t.me/qurssan

- تعلـم، أنـا أحـب مَلمسـهم جـدًّا، وَهـذه الكرمشـة، آه أنـا أملـك مثلهـا، مـن سـنوات قليلـة كنـت أخـاف مـن مصـير يـديَّ، الآن أحبهـم، ناعمـة ورقيقـة مـن الكـف، الجلـد متغضن بعـض الـشيء، طبقـة عازلـة لكن تـرى تحتهـم بوضـوح الزرقة، وتلـك الحبيبـات المتناثـرة عـلى طـول الـذراع، انظـر إنهـا تنبـت عـلى بطنـك العـاري كأنهـا حديقـة، وفي رقبتـك النحيلـة، رقبتـي أنـا ثمينـة وممتلئـة بهـا، أيضًـا عـلى الوجـه. أنفـك دقيـق، وعينـاك بُنيتـان، عينـاي لونهـما زمـردي، أعلـم أنـك لا تفهـم في الألـوان، ولا التفرقـة بينهـم، كل بنـي جنسـك هكـذا.

- ليـلى رائحتـكِ قويـة، أشـعر بهـا في كل مـكان، روحـك طاغيـة وأشـياء المنـزل وحاجياتـه تتشـبع بهـا، كل ركـن هنـا يعرفـك جيـدًا كأنـكِ أمـه، كذلـك قلبـي يـا ليـلى، كان خائفًـا أن يرفـض والـدكِ الزيجـة، قـد أصابـكِ بعـض الترهـل كـما أصابنـي، لكنـي أغـوص فيـه وألعـب كطفـل صغـير، نعـم لم نـرزق بهـم، هكـذا الدنيـا لا تأخـذ منهـا الكثـير، أنـتِ تكفـين.

- تعال معي للمطبخ، أخاف الوحدة!

- الرائحة مُغرية.

- تذوق هذه الحبة.

t.me/qurssan

- أوه. الذُّرة لذيذة.

- طعمها، ماذا يبدو؟

أغمض عينه، وراح يمضغ أكثر ويستلذ بالعصارة.

- كقبلة من شفتيكِ يا ليلي، هذا هو طعمها.

- أنت خبيث، تحب الأكل كثيرًا.

- وأنتِ فريدة.

- كنت أود أن أسميها هكذا، فريدة! ألاعبها وأضمها لصدري، ألقمها من ثديَّ، أصبحوا الآن مجرد ثمرتين مترهلتين.

- تعلم يا جابر، حين أتخفف من ملابسي في الغرفة وأقف أمام المرآة أتفحصها، في البداية كانت نظرة مُتيم، ثمرة ناضجة ممتلئة باللبن، لكنه حبيس الظلمة، ثم مع الوقت تبدَّلت النظرة إلى حزن وأحيانًا حسرة، أنا أحب كل قطعة من جسدي هذا، قديمًا والآن، إلَّا هذه التكورات التي لم يتَلَقَّمها يومًا فَم طفل.

- انظر إنها منتصبة لأول مرَّة منذ فترة، ماذا فعلت بهذه اللمسة السحرية؟

t.me/qurssan

- أنتِ جميلة، أحسد نفسي عليكِ.

- احتضني بقوة، ضم ذراعك حول خصري، لا تفلتني مهما حَدث، مهما تفهوت بكلام، أو أطلقت عليك السباب، سأختبرك!

- لا يا ليلى، لا تعضي!

- لا تفلتني يا جابر، استمر في احتضاني.

- أحبكِ يا ليلي، أنتِ طفلة مدللة، لا تبكي، أنا معكِ، لن أذهب، حضنكِ دافئ، قلبكِ يسعني بكل ما أحمل من تناقضات، وساوس وأفكار غريبة، تتحملي حتى هذا المس الشيطاني الذي يدفعني لارتكاب أشياء حمقاء أحيانًا، تركي العمل وأنا لم أبلغ الثلاثين، جلوسي بالساعات هنا في هذه الصالة مع هذا الحر، أرسم وأرسم، وتنزلق الألوان على الأرضية، وتعلق بالستائر، وبالكنبة القديمة.

- ضمني بقوة أكثر، أحتاج لهذه اللحظة، لا أود أن تنتهي، عنفني إذا وهنت عِظامي وأرادت أن تنسحب، أمسكْ بها كأنك تمسك بفرشاة في ذروة الإلهام ولا تود التخلي عنها إلَّا بعد أن تكمل اللوحة.

t.me/qurssan

هــو قــادم أشــعر بــه، شــكله جميــل، كذبــت الســينما والروايــات في تصويــره، احتضنــي، عينــك جميلــة، ســتبحث عنــي وتســتعجل الخطــى لــتراني شــابة تجلــس في حديقــة وتلَقَّــم طفــل يشــبهك مــن ثديهــا.

***

t.me/qurssan

بقايا ضوء

t.me/qurssan

t.me/qurssan

أشعر بحركة مريبة في هذا المكان، بالأحرى ولأكن مُنصفًا هي مجرد حجرة بداخلها حمام متر في متر لا غير، باقي الخمسين مترًا يشغل الحيز الأكبر منهم مكتبة، هي ليست مكتبة بالشكل المتعارف عليه، بل أرفف موزعة على الجدران بعشوائية شديدة، مع أني أكره العشوائية!

لكن المساحة هي من تجبرني على تقبلها، تلك الحركة تأتي من حين لآخر، هذه المرَّة شديدة، ولا أستطيع تحديد موضعًا بعينه.

سحبت من أعلى رأسي كتاب وبدأت القراءة فيه، كان عن أنواع الأسماك الغريبة «أسماك لم تسمع عنها من قبل» هكذا كان العنوان، بين لحظة وأخرى أرفع عيني مُرغمًا باحثًا عن مصدر الصوت ولا جدوى، فقط تزداد الحيرة، وينقطع التركيز، أترك الكتاب، أقف في منتصف الحجرة أمام الكنبة التي أجعلها سرير للنوم وأدور بعيني، أجد شقوقًا كثيرة في الجدران الأربعة، شقوق لا تصلح لعيش كثير من الحيوانات أهمها الفئران، فأنا أكرههم جدًّا، لكن لا أخاف منهم.

لو دققت النظر في هذه الشقوق، سأجد صراصير وعناكب، النمل والكثير منه، ربما أجد عصفورة ضلت طريقها، بطبيعة الحال فالذباب يعشش هنا في كلّ ركن ولا

t.me/qurssan

يحتاج لشق بعينه، الأبراص والسحالي، وربما أجد ثعبانًا مسالمًا وصديقًا للإنسان!

يختفي الصوت بعد تلك الرحلة من البحث، عائدًا للأسماك، تمنيت أن أحظى ذات يوم بمجموعة نادرة وجميلة من الأسماك في حوض زجاجي مع بعض السلاحف المائية، فأنا لا أصادق الكثير من البشر بل لم أحاول من الأساس، لا أود خوض علاقة ربما تنتهي في أي لحظة، هذه الأمنية انتهت من فترة كبيرة أصبحت في خزانة الأمنيات المكتوب لها البقاء كأمنية!

صديقي الوحيد والذي انتهت علاقتي به منذ سنتين لأنه تزوج، دائمًا كان يخبرني أنني قوقعة بحرية تخشى أن تطل برأسها للخارج، كما لا تتمنى أن يجرفها التيار للشط فيصطادها الأطفال جاعلين منها صدفًا ومنفضة سجائر!

أخبرته حينها أن كلامه صحيح، ولا داعيَ لخوض نقاش نتيجته محسومة، من بعدها لم أره، حتى فرحه لم يعزمني عليه، وكحالي دائمًا تركت الأشياء تمضي لحال سبيلها.

هنا زنزانة صغيرة بها كثير مما أشتهي، وفي الخارج زنزانة كبيرة بها الكثير مما أشتهيه ولا أستطع الفوز به، وأنا راضٍ وقانع بهذا.

t.me/qurssan

طَرقة خفيفة على الباب، أسأل: مين؟

لا رد.

تعود نفس الطَّرقة مرَّة أخرى.

- مين؟

- سعد.

أقول فى سري لا أعرف أحدًا بهذا الاسم، فتحت الباب ووجدت شابًّا لم يكمل الثلاثين بعد، لحية كثيفة، قميص رث ورائحة عرق كريهة كرائحة قميصي المُلقى بجوار الكنبة، بنطاله متقطع، لكنَّ عينه بها صفاء غريب، وقفت أنتظر أن يخبرني عن نفسه أكثر، لكن يبدو أنه يحدّق فيَّ كما أفعل.

- نعم؟

- سعد عمران.

- تشرفنا يا سيدي، ماذا تريد؟

- أنا الساكن الجديد المقابل لغرفتك.

- آه، أهلًا وسهلًا، نورت السطوح يا سعد.

- الشرف لي، اعذرني لكن الغرفة خالية من الكهرباء، وعدني صاحب العمارة أن يأتى بكهربائي غدًا ليصلح العطل.

t.me/qurssan

- لا عليك، قال لي نفس الكلام من قبل، في الغالب لن يصلح العطل إلَّا بعد أسبوع.

- إذنْ ضَحك عليَّ؟!

- هاهه، الموضوع أبسط من كده، هو شخص بارد فقط، يفعل الأمور وقتما تحلو له، ثوانٍ عندي كشاف ربما ينفعك.

- عدت له بكشاف قديم، وحاولت جاهدًا فى تشغيله حتى نجحت.

- تفضل، الحمد لله أنه ببطارية ولا يحتاج لشحن كهرباء.

- شكرًا يا...

- اسمي سعد.

- غريبة! تشرفنا يا سعد.

- تشرفنا يا سعد.

عدت لعالم الأسماك الغريبة التى لم أسمع عنها من قبل، لكن كنت أفكر في هذا المدعو سعد، ما حكايته؟

هنا انتبهت لنفسي، ولأول مرَّة أضبطها تهتم بأحدٍ كان، حتى إني وجدتها تضحك ضحكة خالية من السخرية.

t.me/qurssan

صوت بدأ يتردد فى الأركان، ليس من الغرفة أنا متأكد من هذا!

فتحت الباب، فزاد الصوت أكثر واتضح، ها عود، كيف أجهل صوته وأبي كان عوَّادًا، طوال الليل يضرب عليه ولا يمل حتى تتلقفه أمي بالشتيمة والدعاء، مشيت خلف الصوت حتى الغرفة المقابلة، غرفة سعد الساكن الجديد.

طَرقة خفيفة على الباب، فأنا أكره الصوت العالي، فتح لي مرحِّبًا بالضرب على الأوتار بطريقة عشوائية.

- أهلًا سعد، تفضل.

- شكرًا، لكن سمعت صوت العود فا....

- هل أزعجتك؟

- لا، فقط أعجبني الصوت، والعزف بالتأكيد.

- طب تفضل يا سعد تفضل.

دخلت الغرفة ومن خلال بقايا الضوء الموجود تطلعت فى هيئتها، تمامًا شبيهة لغرفتي، ليس المساحة فقط بل حتى الكتب، الفرق أنها أكوام فوق بعضها لم ترتب بعد.

- أتمنى أن أعد لك الشاي.

t.me/qurssan

- لا تتعب نفسك، أنا فقط سأذهب بعد قليل.

- هنشرب شاي يا سعد، تحب كم معلقة سكر؟

ابتسامة بلهاء على فمي.

- كم معلقة سكر؟

- اتنين يا سعد.

أتاني بالشاي، وكنت في حاجة إليه، شرب من كوبه القليل، وأشار للعود: بتعرف تعزف؟

- الحقيقة مجربتش قبل كده.

- امسك.

أخذت العود بين أحضاني، وبدأت أحاول، ألمس الأوتار في خوف وشوق، وأنظر للنقوش المحفورة عليه، حتى بقيت لمدة ربع ساعة أو يزيد أعزف دون انقطاع، وهو في ذهولٍ تام.

- وبتقول مبتعرفش تعزف، ده أنا أتعلم منك.

- الحقيقة والدي كان عوّادًا، علمني من صغري، لكن بعد أن مات قررت ألا أمسه مرَّة ثانية، لذا فكرت أنني لن أعرف العزف مرَّة أخرى.

t.me/qurssan

- ده زي الهوا يا سعد، تقدر تستغني عن الهوا؟

- لا، أموت!

- بيجري في دمك، زيي تمام، زي ما بيجري في دمي كذلك حب القراءة والكتب.

هممت بالكلام، فقاطعني سريعًا:

- عارف، إنت كمان زيي، رأيت الكُتب عندك.

- أنت شغال إيه؟

- أنا عاطل، زيك تمام، أصبحت أكثر الوظائف إقبالًا.

- شكلك بتاع سياسة يا سعد، خاف على نفسك!

- طلقتها بحكم من عمك عمران.

- وهل رضيَ بعدها؟

- نعم، حتى إنه بات يتكلم فيها ليل نهار.

- الصوت أصبح ضائعًا يا سعد، لا أملك إلَّا العزف ببُكاءٍ وحرقة حتى يهد الأرض، يذكرني أني ما زلت موجودًا.

- تشرب حشيش؟

- معاك؟

t.me/qurssan

- لأ، بس نفسي فيه، زي ما نفسي في كاس، مع أني لم أشربه مطلقًا!

- أهلًا بك في الزنزانة الكبرى، حيث ما تشتهي ولا تستطع نيله.

- الفجر يقترب، سوف أغادر يا سعد، لنا بقية.

- انتظر قليلًا، ما زال في هذا الكشاف بقايا ضوء.

- تنعم بهم، أما أنا فالنوم يناديني.

غادرت غرفة سعد، وأشياء كثيرة تعترك داخلي، أشعر أني أقترب على جَلدٍ للذات وتأنيب للضمير، كيف بهذه السهولة انسقت لهذا الشخص ولحكايته؟ ألا يكفيني حكايتي التي بدأت ولا أعرف متى تنتهي؟ بل إني توَّاق لمعرفة موعد المغادرة!

نمت نومًا عميقًا لم أظفر به من قبل، كانت الساعة العاشرة حين سمعت طرقًا عنيفًا على الباب، قمت فزعًا من الحيوانية التي يتعامل بها الطارق عليّ، فتحت الباب وإذ بصاحب العمارة الحاج سيد بوجهه العابس دائمًا، وجلبابه الأسود الذي لا يغيره مهما كانت المناسبة يسألني بصوته الخشن: تسمح إيجار الأوضتين؟

t.me/qurssan

- ليه إيجار أوضتين يا حج سيد؟

- الأوضتين اللي أنت مأجرهم من ساعة ما سكنت هنا يا سعد، هو كُلّ مرَّة نفس الموال؟

- بالراحة بس يا حج، فهمني، أنا لم أؤجر منك إلَّا غرفة واحدة، هذه، وهذا هو بابها!

- أومال الأوضة اللي هناك دي تبع مين؟

- إيه يا حج سيد، سلامة الذاكرة، تبع سعد عمران تعرفت عليه بالأمس!

- سعد عمران، أومال أنت مين يا سعد؟ أنت هتجنني يا بني؟! مش إنت اسمك سعد عمران ولا غيرته، مش كفاية صوت العود اللي قارفنا بيه طول الليل!

- في إيه يا جماعة؟ مالك يا أستاذ سعد؟ خير يا حج سيد صوتكم عالي؟

- أستاذ خالد، انجدني منه، نفس الموال بتاع كُلّ مرَّة!

- مش عايز تدفع حساب الأوضتين برده يا سعد؟

- أوضتين، إنت كمان يا أستاذ خالد!

t.me/qurssan

- يـا بنـي لازم تتعالـج، أنـت بقيـت تكلـم نفسـك طـوال الليـل بـين الغرفتـين، لا حـول الله.

- بكلم نفسي كمان!

- الرحمة من عندك يا رب، صبرني!

- هـدي أعصابـك يـا حـاج سـيد، هـو سـعد هيفتكـر كـمان شـوية، مـش أول مـرَّة تحصـل.

كُلّ هـذا يحـدث أمـام عينـي وأنـا في ذهـول تـام، أكاد يُغمـى عـليّ مـن وقـع الصدمـة، انتابتنـي حالـة مـن الصمـت، وعـدم الإحسـاس بـما يجـري، حتـى غـاب صوتهـم تدريجيًّـا عنـي ووقعـت عـلى ظهـري.

بعد فترة وجدتني مسنودًا على ظهر الكنبة، وبجواري الاثنان.

- الحمد لله، ها قد فاق.

***

t.me/qurssan

عيد الميلاد السابع عشر

t.me/qurssan

t.me/qurssan

البنتُ التي تلعبُ أمامي كُلَّ ليلةٍ، حافية القدمين، مُطلِقةً شعرها القصير، يعبث به الهواء كيفما يشاء، أصبحت اليوم شابة، قد اشتد عودها، وطال شعرها، وبزغ لها نهدان أشبه بحبتَي برتقال لم تنضجا بعد.

مضت أيام كثيرة، ما زالت تلعب أمامي، لكن مع صبي صغير، يشبهها، له عينها العسلية، وأنفها القصير، وشقاوته وهي طفلة، تناديه بأحمد، وتمسكه من خصلات شعره، إذا أغضب الصبية حوله، فينزوي في ركن ويبدأ في الصراخ، وهي كالبلهاء تُسارع لإرضائه، فيرضى ويبدأ بفرك عينيه، فتصبح حمراء كحبة بندورة.

لها من القطط ما لا يُعد، وكلاب ضاله انتشلتها من الشارع، بيتها في الطابق الثاني من العمارة الأولى في هذا الشارع، قد عرفه الناس باسم ملجأ القطط والكلاب، لصاحبته المجنونة سعاد، وما هي بمجنونة بل هم، فقد تحوَّل قلبها إلى مركب كبير يسع الكل فيه، إنسانًا كان أو حيوانًا ضالًّا.

«سعيدة أنا هكذا، بين قططي وكلابي، ومعي أحمد يهون عليَّ ويحرسني بسنواته الخمس».

والد أحمد رحل منذ مولده، لم يستطع أن يجد نفسه أبًا وعليه مسؤوليات وواجبات، لن يكون مستقبلي هكذا، قال وغادرها، بعدها بأيامٍ وجدت ورقة من مأذون شرعي يبلغها

t.me/qurssan

بـأن الطـلاق تـمَّ، احتفظـت بالولـد، ونسـت زوجهـا إلى غـير رجعة.

«نذل، سـافل، حقير، مسـتودع قـاذورات، نعجـة، وهارب»، تحـدث نفسـها بهـذا كلـما أصابهـا يـأس. أحمـد الآن في العـاشرة، خمـس سـنوات مـرت دون أن تشـعر، مـا زالـت تحتفـظ بألقهـا، وشـغفها بالقـراءة، ولم تمتلـك يومًـا الجـرأة للكتابـة. سـبعة عشر عامًـا عمـر ولدهـا، وخمسـة وثلاثـون هـو عمرهـا، أمسـكت بأجنـدة مرسـوم عليهـا زهـور عبـاد الشـمس، وظهرهـا أسـود، فتحـت الصفحـة الأولى ثم الثانيـة حتى وصلت للسـابعة عشرة، وفي منتصـف الصفحـة كتبـت بخـط عريـض جميـل، مذكـراتي:

«أحمـد اليـوم يكمـل عامـه السـابع عـشر، ولحسـن الحـظ أن يـوم مولـدي هـو يوم مولـده، أنـا أصبحـتُ كبيرة، عمري خمسـة وثلاثـون، لم يمسسـني رجـل مـن اليـوم الـذي جـاء فيـه ابني إلى الدنيـا، تزوجـت مـن حقـير عديـم المسـؤولية، هـرب مـع أول صرخة لوليـده».

- أين عصير البرتقال يا ماما، لا أجده في الثلاجة؟

- في الصالة بجوار التلفاز.

«أحمـد يكـره القطـط، لكنها سـتعلمه الرحمـة، رغم هـذه المدة التـي قضاهـا مع القطـط، إلا أنه لم يـرقَّ، ربما قريبًـا تجتاحه الرغبة في الحب».

t.me/qurssan

- ماذا تكتبين؟

- لا شيء، عندك درس، يجب أن تسرع

- أصبحتِ أمًّا مصرية بامتياز.

- أنا بالفعل هكذا.

- تعليقات مقتضبة.

- وأنت تكبر بسرعة.

«بالفعل أحمد يكبر بسرعة، وهذا يجعلني قلقة، وأحيانًا متوترة، وخائفة، مع أنه يجب أن يعطيني نوعًا من الأمان والثقة، منذ أن غادر والده، هذا النعجة، وفرَّ كما تفر الفئران من السفينة، وأنا أحمل داخلي غضبًا شديدًا ناحية جنسه، والناس أجمعين، لم ينصفني أحد، حتى القانون حينما لجأت له، رمى لي بضع ورقات نقدية من فئة المئة كل شهر، وضاعت نفقتي ومهري، بدهاء من محاميه.

«كل يوم أصطدم بشيء جديد، مرَّة بشجرة، ومرَّة بأفكار بالية، ومَّرة بألسنة لا ترحم من لا ظهر لها في هذه الحياة. أنت لا تستطيع أن تحاسبهم على ما في نياتهم، مع أنها خبيثة والكل يعرف هذا، رحماك يا رب من التناقض الواقعين فيه.

«دائمًا أحصل على بداية سعيدة، هكذا كل البدايات، لكن هل لي بنهاية سعيدة، على الأقل لولدي، لا لي؟! أود أن أتكئ عليه، كما اتكأ عليَّ، وأحتضنه كما كنت أفعل في صغره.

t.me/qurssan

«لم أعد أصلي، أصبحتُ هالكة، في السابق كنت أتردد عليها متوترة خائفة، الآن لا تمس جبهتي الأرضية. السبب مني، أعترف، أنا بحاجة لمن يعيد لي إيماني الضائع، وجود أحمد يشجعني للعودة، أحتاج فقط أن أخذ الخطوة.

«أجدُ أناسًا كثيرًا في صحوي ونومي، قد وضعوا مائدة أمامي، وتركوني حتى الشبع، وشهوات غير متاحة في الحياة، فأغترف منها ما أشاء، دون أن أصبح خاطئة، ودلو كبير وُضع به ماء، فأنزل بجسدي النحيل فيه، كأني أُعمَّد، مرَّة واثنين، لا أحد يلتفت، ولا أجد حتى من ينقذني، حتى آمل فأجدني على السرير، وقد ابتلت الملاءات، وعلى جبهتي عرق غزير، بعد فترة أكتشف أنه خمر، طعمه لذيذ، لم أكن من قبل قد احتسيته. كنت أحلم، فلا توجد هنا عاصية يتركها الناس في حال سبيلها، أقلها يتم التشنيع بها.

كانت الساعة الرابعة، قريبًا سيعود أحمد من درسه، أقبلت على فعل الكتابة بجرأة قوية: «أنا فخورة بنفسي حتى وإن كان ما أكتبه جميلًا أو قبيحًا، المهم أني كتبت، حتى امتلأت الصفحات، وأزيح من صدري بعضًا من الزحمة».

صفحة أخيرة يجب أن أكملها، الصفحة الخامسة والثلاثين..

«عليَّ أن أكون صادقة وإيجابية، لكني لا أستطيع العيش في هذه الخدعة كثيرًا المسماة الحياة! لا أعرف الهرب، لم أعتده،

t.me/qurssan

لكـن في النهايـة كل هـذا دون معنـى، دون فائـدة، فكيـف لي بالاستمرار في هـذا الوجـود، وأنـا أستنزف كليًّا كل يـوم؟ دائمًا مـا أجـد طريقـة للمرور مـن هـذا الثقب الضيـق جدًّا، هـل فعلًا أنـا راغبـة في المغـادرة؟ أن يختفـي نجمـي المضـاء، ومعـه تختفـي الشـمس، والأرض تذهـب دون رجعـة، إلى ظلمـة أبديـة! آه يـا رب، مـا الـذي جرفنـي إلى كل هـذا الإحبـاط، أشـعر أني حبـة رمـل في صحـراء شاسـعة، لا أحـد يسـتطيع التعـرف عليهـا، أو ينتشـهلها مـن بـين هـذا الكـم الهائـل مـن التشـابه. عـليَّ إلهاء نفـسي، حتـى الصمـت لا أحبـذه، أحمـد هـو إلهائي عـن كل هذا، حتـى لا أقـع فريسـة، وأغـادره، فأخـسره، يا إلهـي كل شيء يهون إلا خسـارة ولـدي.

«هـا قـد عـاد، الغريبة أنـه لم يسـألني طـوال تلك المـدة، عمن يكـون أبـوه، ولا لمـح لي في مـرَّة أنه يـود رؤيتـه، هو يعلم الاسـم الـذي في شـهادة الميلاد، لكـن لم يلتـقِ به».

قامـت مـن مكانهـا وأخرجـت علبـة قديمة مـن الأرابيسـك، أعطتهـا لهـا أمهـا قبـل الوفـاة، أخرجـت شـهادة ميـلاد الابـن، ونـادت عليـه: أحمـد، تعـالَ إلى هنـا، أنـا في الغرفـة المجـاورة.

- نعم يا ماما.

أصبح طويلًا، واشتد جسده، لأول وهلة تلحظُ هذا!

نظرت في عينيه، وكانتا صافيتين، تمامًا كعينيها.

t.me/qurssan

- هذه شهادة ميلادك.

- أعلم، لكن ما الداعي لإخراجها.

- اقرأ اسمك بالكامل: أحمد جبريل النجاري.. هل تعرف من هو؟

- نعم، مجرد الاسم فقط، لم أسأل ولمَ تسألين؟ ماذا يدور هنا، أنا لا أفهم شيئًا.

- حسنًا، والدك هذا، غادرني بعد أن أتيتَ أنت للدنيا، لم يحتمل فكرة أن يصبح أبًا، هو حقير أعلم، اعذرني إن شتمته أمامك.

- لا يهم، فأنا لا أعرفه، أنا لا أعرف أحدًا إلا أنتِ.

- لأجل هذا، أود أن تبحث عنه، أينما كان، لتفهم على الأقل لماذا فرَّ فور وصولك، هذا عنوان محاميه، بنسبة كبيرة لم يغيره، كان يبعث إليَّ من خلاله بضع ورقات نقدية كل شهر من أجلك، هي في حساب بنكي باسمك، لم أمسسها، هي لك.

- ماما، لا تحمليني فوق طاقتي، أنا لا رغبة لي في كل هذا، أنا لا أود أن يشاركني فيكِ أحد، أنتِ فقط وأنا، كما كنا من قبل، أعلم أني لا أعرف كيف أعبر عن مشاعري، لكن أنا أحبكِ جدًّا، لم أحبَّ أحدًا من قبل مثلك، أعلم تضحيتك

t.me/qurssan

الكبيرة من أجلي، ليذهب والدي إلى الجحيم، أنتِ الأم والأب، والصديق بالنسبة لي. يبدو أنكِ تفتعلين كل هذا، حتى لا تحتفلي بعيد ميلادي السابع عشر.

احتضنته، وكانت ترغب في هذا بشدة، من بعد العاشرة لم يلمس حضنها الدافئ، كبر الولد وأصبحت عجوزًا، هي مَن بحاجة إلى حضنه أكثر. أتت بتورتة صغيرة، ووضعت فيها سبع عشرة شمعة، فأخرجها، ووضع اثنين فقط، قائلًا: هذه لي، وهذه لكِ.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

العَمّ إبراهيم ونعناع السِبيل

t.me/qurssan

t.me/qurssan

يبعد عن قريتنا بثلاث قرى، تُدعى قريته بـ«السِبيل». يُصلي الفجر ويركب حماره الأبيض متجهًا نحو قريتنا، يُحمِّل الحمار بالمتاع من النعناع والشبت والبقدونس والفجل والكرَّات والكزبرة، ما لذ وطاب من الأرض، قريتنا أول وجهته، يبدأ بشارعنا أوَّلًا.

يصيح عاليًا بصوته العذب الممتلئ بالنغمات على بضاعته، في السابعة يكون قد وصل، ومن أجله تتهافت الأمهات لشراء احتياجاتهم منه.

لم أكن أعرف اسمه إلَّا عندما نادته جدتي بالعَمّ إبراهيم، أول مرَّة رأيته فيها كان شاحب الوجه، هزيل الجسم، صفراء أسنانه من فرط الشاي والسجائر، والسواد يملأ أسفل عينه نتيجة مرضه. كنت أخاف النظر إليه، أظل أفكر لِمَ هو هكذا؟ هل هناك أسرة تهتم به؟ هل له أطفال أو زوجة؟ وعند السؤال عليه لم أكن أجد إجابة ترضيني.

فجدتي تخبرني أنه قليل الكلام، ولا يعارض كثيرًا الزبائن في الأسعار، مما يجعل الزبائن يا ولدي تماطل معه في السعر، وهو ينزل على رغبتهم، مع أن أسعاره لا تتعدى النصف جنيه أو جنيهًا كاملًا، إلَّا أن الناس يا ولدي ينتظرون أي فرصة لممارسة القوة على الأقل منهم، تمامًا كما تفعل الدولة معهم.

t.me/qurssan

الناس في غربة، إلَّا إن عَمّ إبراهيم غربته أقوى ومثيرة أيضًا، رجل لا تعرف عنه شيئًا، كلّ ما تعرفه اسمه ووظيفته، تخشى النظر في وجهه بسبب المرض الذي أهلكه، رغم ذلك تشفق عليه، تتمنى أن يكون حاله أفضل، بل يصل الأمر بك أن تحبه، وتنتظر مجيئه!

انقطع عم إبراهيم عن المجيء للقرية والشارع ثلاثة أشهر.

الأحاديث عن هذا الرجل العجوز الذي يأتي كلّ يوم للقرية محمَّلًا ببضاعته على حمار أبيض منذ ما يقرب العشرة أعوام ويشترى منه جميع الناس النعناع والفجل، وفجأة ينقطع عنهم! أصبح الحديث الدائر فى كل بيت، والموضوع الأهم، إذ لَم يكن يشغل الشارع أحاديث ذات أهمية كبيرة، كيف وهو لَم يُخلف يومًا لَم يأتِ فيه.

لا أعرف ما الذي جعلني فجر هذا اليوم مستيقظًا يأبى النوم أن يأتيني، التقطت حينها كتابًا من المكتبة وجلست في البلكونه أطالعه على ضوء شروق الشمس الذي يأتي من بعيد مترددًا.

الساعة السابعة الآن ولَم أملَّ من القراءة! الشمس أصبحت تغمر المكان، الشارع فارغ إلَّا من أصوات

t.me/qurssan

العصافير، أغلقت الكتاب فجأة وروحت أتجول بعيني في الشارع من أوله لآخره حتى تسمرت عيني على المَنزلة!

نعم هو العَمّ إبراهيم راكبًا حماره، يصيح على بضاعته بصوتٍ عذب كلّه نغم:

«اللى عايز الجرجير، شبت وبقدونس وفجل، نعناع أخضر».

حتى توقف أسفل البلكونة وبخفة شديدة قفز من على حماره وأخرج كُوزًا ممتلئًا بالماء وراح يرش به عيدان النعناع وحِزم الفجل والجرجير.

أنا غير مدركٍ لما أراه الآن، الجسد الهزيل صار بنيانًا قويًّا، والوجه الشاحب بات مُكتنزًا تقفزُ منه الحُمره، وتحت العين اختفى السواد، الحركة سريعة، اللسان لا يكف عن الحمد والتسبيح، وابتسامة نَضِرة تعم الوجه.

أسمع صوت هرجلة وتقلبات فى الأسِرَّة، همهمات وحيرة، وأسئلة كثيرة.

هل هو أم أحد غيره؟

بعد دقيقة كانت الجدة في الشارع تُسارع الخطى تستقبله فَرحةً غير مصدقة.

- ليك وحَشة يا عَمّ إبراهيم، فينك يا راجل؟

t.me/qurssan

- أنا أهو يا ست الكل.

- غيبة طويلة!

- غصب عني، المرض تملك مني.

- مرض إيه يا راجل؟ ما وشك زي البدر أهو!

- ده فضل ربنا عليَّ، بعد شهر رقدة في السرير لا حول ولا قوة، وأنتِ عارفه لا ليَّ عيل ولا تيّل، نصحوني ولاد الحلال أروح النوبة!

- النوبة! تعمل إيه؟

- شيخ قبيلة نوبية كان في مسجد القرية، لما شاف حالتي اللي لا تسر عدو ولا حبيب، صمم يعالجني هناك في النوبة. استقبلني في بيته، من الفجر بعد أن نصلي ونفطر، نمشي لآخر جبل في قريته، وهناك في الرمل يقوم بدفني وينثر عليَّ الرمل، حرارته لا تُطاق كأنني دخلت جهنم، ثم بعد وقت محدد يعلمه هو ويقوم بحسابه يخرجني من الرمل، ونعود مرَّة أخرى لبيته الواقع في أول القرية. البيوت تشبه بعضها، القلوب صافية، والوجوه التي تشاهدها في الذهاب والعودة لا تعبس في وجهك أبدًا، بل تجدها تبتسم عن طيب خاطر تضحك بكل ود ومحبة، لا تُكِنُّ لك أي ضغينة. زين لم يكن إلَّا إنسانًا عاديًّا، بل أقل من العادي،

t.me/qurssan

رغم هذا أهل قريته ينصبونه كبيرهم ويلجأون إليه في مشاكلهم، يجدون في بيته الراحة والألفة، مُقيمون عنده، باب بيته الخشبي ذو اللون الأخضر المرصع بقبضة نحاسية لا يُغلق مهما كان، زين وهب نفسه لأهله. هو الأب لهم، رغم أنه لم يتزوج، إلَّا أن كل من في القرية من أولاد وبنات هم أبناء له. لا يُغلق في وجهه باب، كل الأبواب مفتوحة بإذن الله، هكذا كان يذكرني دائمًا، يا إبراهيم توكل على الله فالأبواب مفتوحة بإذنه. كل يوم نكرر هذا المشوار وعملية الدفن هذه ونثر الرمال ونعود ثانية. بعد شهر فقط وجدت نفسي يا حاجة سليم البدن، وشهية مفتوحة لا تقول لطعام «لا» مهما كان لونه. أود أن أصارع الأُسُود بما حل بي من قوة، بعد يومين راحة أرغمني على الجري بعد الفجر إلى الجبل لمدة أسبوع كامل. لَم أجد في ذلك تعبًا بل وجدت راحة. في الأسبوعين التاليين كان يصف لي زيوتًا كثيرة، وأقوم بدهَان الظهر والساق والكعبين والذراعين. في الأسبوع الأخير كنت أرمح مثل الحصان في القرية، الكل يعرفني، يشاورون عليَّ ويقولون: «أتى مع الشيخ قعيدًا، الآن تراه كالنحلة لا يهدأ».

- بركاتك يا شيخ، إلَّا اسمه إيه يا عَمّ إبراهيم؟

- اسمه الشيخ زين.

t.me/qurssan

- أمانة عليك يا ولدي تكلمه أو توصلني بيه، رجلي ضعفت، العظم نخرب السوس فيه.

- إنتِ تؤمري يا حاجة.

كل الناس في الشارع خرجوا، الأمهات والبنات، حتى الرجال تركوا النوم، كلهم يودون السلام على العَمّ إبراهيم، وأنا واقف في البلكونة أشاهدهم وأشاهده، كأن زين هذا هدية من الله أُرسلت له فاغتنمها ولَم يبارحها حتى أتم الله شفاءه.

ضجة عارمة في الشارع، تحوَّل المكان إلى سوق كبير البائع الوحيد فيه العَمّ إبراهيم. هذا يصيح من بعيد أعطني حزمة سبانخ وملوخية! آخر بقدونس وكزبرة، وهذا يطلب نعناع السَّبيل من العَمّ إبراهيم. الكلّ يتبارى من أجل الشراء منه، لا يجادلون في السعر، يدفعون كما يقول بل بعضهم يدفع بزيادة.

جاءت من الزحمة هذه الدعوة: «الله يكرم الشيخ زين اللي ما شفته عنينا، وجالك نجدة».

الجدة تخبر عَمّ إبراهيم أن غداه اليوم عليها وفي بيتها، يبتسم لها لكن يرفض بأدب والخجل يعلو وجهه.

- إنت حر، دي ملوخية، وهتحبس بشاي بنعناع بعدها.

t.me/qurssan

- دايمًا عامر يا ست الكل، كلك كرم وأصل.

- إنت وعدتني هتكلم الشيخ زين، أو توصلنى بيه.

- وعد الحر دين عليه! راح أزوره مرَّة ثانية هو شيخي وأنا من مُريديه، له عليَّ حق، وزيارته واجبة.

حين غادر العَمّ إبراهيم الشارع لَم يكن بقي من حِمله شيء، بضاعته كلها مباعة.

اتجه نحو المَنزلة بحماره، يمتلئ صدره بالرضى، خفيفًا مرحًا لا تغادره الابتسامه، ومن بعيد يلوح بيده.

لم يتبقَّ إلَّا الغبار الذي خلَّفه الحمار وراءه، بعد دقائق قليلة كانت الجدة تنادي عليَّ بصوت عالٍ كي أنزل للفطور والأهم لأشرب الشاي بنعناع السَّبيل.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

رُوحِي مَقْبَرَةٌ

t.me/qurssan

t.me/qurssan

علقتُ خبر موتي أمامي على الحائط، كل صباح ومساء كنت ألقي نظرة عليه، لأطمئن أن ورقة الجرنال التي كُتب فيها الخبر بخط كبير، وصفحة أولى، بعيدًا عن الوفيات، ما زالت سليمة، وتستطيع أن تقاوم معي الأيام القادمة.

دُفنت على قيد الحياة، لم يكن أحد يعرفني، لكن بعد هذا الخبر الذي كان مجرد تأبين، من شخص مجهول، يحكي قصة عن طريقة وفاتي، ويقوم بمواساتي وأنا في القبر بكلمات رقيقة، أحيانًا أجد فيها بعض الأخطاء الإملائية، جعلني أحد الشخصيات العامة، ويتم الحديث عنها بعد الوفاة، حتى وإن كانت وفاة غير حقيقية.

أنا أول مَن يشاهد خبر وفاته في الجورنال، وقبل أن يتحدث عنه الناس بصيغة الماضي، رغم أني حي، آكل وأشرب، وأنام، وأقضي حاجتي، وأسير على رجلي في الشوارع أمام الكل، لكن هم مُصرون على أني مت، وتم دفني أيضًا في مقابر الجبل الأحمر، حارة ألف، مقبرة رقم ثمانية.

زهر مالك الحسن، وفاته غامضة، وُجِدَت الجثة بالقرب من منزله، ثلاث طعنات، طعنة في البطن، وواحدة في القلب، وأخرى أسفله.

شاب لم يتعدَّ سنه الثلاثين، مهندس ديكور، استقال من وظيفته، أكثر من سنة، وحيدًا يعيش في شقة، ورثها من الأب،

t.me/qurssan

ليس لديه أهل أو أقارب، وجد في شقته بالدور الثاني من عمارة ألف، مجاورة أولى، مكتبة كبيرة من الكُتُب، بالإضافة إلى لوحات رسم مختلفة، وبعض زجاجات بيرة، وقطعة من مخدر الحشيش ملفوفة بعناية في ورقة زاهية، عُثر عليها في كتاب يتحدث عن حسن الصبَّاح وجماعته، وملابس كثيرة سوداء في خزانة عتيقة، وبخور، وعدد كبير من الجوارب المثقوبة.

حين أقرأ هذا الكلام المكتوب أسفل الخبر، أجدني مندهشًا، وتمتلكني الحيرة، فأنا لا أستطيع أن أكذب ما قاله، لديَّ الآن في هذه اللحظة المكتبة، وزجاجات البيرة موجودة في كل ركن من الشقة، والملابس السوداء، كانت من تصميمي، ولم أتمكن من بيعها رفضتها الشركة، والبخور كان تغطية على الحشيش، الذي لا أتذكر أين ذهبت آخر قطعة منه، لكن بعد قراءة المقال عادت الذاكرة.

قمت من مكاني، ووقفت أمام المكتبة، واضعًا ذراعي على صدري، أبحث عن كتاب حسن الصبَّاح لمدة ساعة، قلبت الشقة، فلم أجده، المقال ذكر أن الكتاب كان في المكتبة، داخله قطعة الحشيش ملفوفة في ورقة زاهية، الآن لا أجد الكتاب، ولا القطعة!

جلست على الكنبة، وقررت ترك البحث ليوم آخر، ربما أعثر عليه، منذ أن قرأت الخبر المشؤوم، وأنا لا أقرأ آخر كتاب فتحته، ووصلت لنصفه، كان كتاب «عن الحشيش»

t.me/qurssan

لفالتر بنيامين، التقطه من على المنضدة، وعاودت القراءة فيه، الصفحات مثنية، وبعضها مرتفع، كأنها اتخذت شكل القبة، هززته، فوقعت على الأرض قطعة الحشيش كانت داخله بحالتها، ملفوفة في نفس الورقة الزاهية، علامات الأسنان عليها بارزة.

أنا أتعاطى الحشيش، تحديدًا من سنة، كنت قررت قراءة الكتاب، حتى أعرف كيف كان شعور فالتر حين يقرر الكتابة تحت تأثير الحشيش، لم أكن أرغب في معرفة علمية، كل ما أردته خوض نفس التجربة، الشعور أني فكرة محلقة وتائهة، شيء صعب الوصول إليه، كل تلك أحلام اليقظة، ربما مع الحشيش تصنع شيئًا جديدًا، فريدًا من نوعه، كأنها وصفة للخروج من مأزق الحياة دون ألم، أو تحمل كثير من الأسئلة التي لم يعد لها إجابة.

هذا أول خطأ يقع فيه كاتب الخبر الملعون، لم يكن كتاب حسن الصبَّاح الذي به قطعة الحشيش، كان كتابًا عن الحشيش، أمر بديهي، لشخص يجعل للأمور صلة، يربط الكل في نقطة واحدة.

الجوارب المثقوبة، حقيقتها ظهرت بسرعة، كنت أرتدي جوربًا مثقوبًا، كلتا الفردتين من عند الرقبة. أما لوحات الرسم فجزء منها كان ديكور جديد للشقة، قمت بتصميمه، ولم يكن لديَّ الرغبة لتنفيذه، الباقية كانت عبارة عن نساء

t.me/qurssan

عارية، علاقاتي الكثيرة والمتعددة كانت مادة غنية للرسم، كنت قبل الانتهاء من العلاقة، أكون قد انتهيت من رسم اللوحة.

إلَّا واحدة، لم تكن مكتملة، مجرد رسم تخطيطي، لا أذكر ملامحها، عبارة عن رقبة طويلة، عينين، نهد مكتنز، والذراع الأيمن منفصل عن الجسد، مرسوم بعيدًا لوحده، وفي الأسفل مكتوب بخط صغير، «الفراديس المصطنعة».

الحشيش كان بوابة لعالم أكثر رحابة، وراحة، الدخول فيه كان صدفة، والخروج منه، بكل تأكيد، لن يكون بسهولة.

حين أشرب، أشعر بكل شيء، السكون والحركة، أشعر بدقات قلبي السريعة والعنيفة، والكلمات لا تنتظم على الورقة، هي ترتفع، تنتظم في الهواء، على مسافة بعيدة، وكافية، عن الأرض، مرتبة، وأستطيع أن أمد يدي، محركًا كلمة مكان أخرى، دون شطب أو تعديل، أشعر بالأفكار المخنوقة، تتحرر وتنفذ للهواء، يلتف حولها الدخان، وربما تُخفي حلقة من الدخان كلمة، ودون عناء أعيد كتابة الجملة.

بعد عدد من سجائر الحشيش، نمتُ في مكاني على الكنبة، في الصباح وجدت بجواري ورقة مكتوب فيها بخط مائل كلام كثير غير مفهوم، حاولت بكل قوة فك شفرته، أخذ مني نصف النهار، كأني في مسابقة للكلمات المتقاطعة.

t.me/qurssan

لم يكن مرتبطًا ما وصلت إليه، لكن ما فهمته أنها كانت كتابة تحت تأثير الحشيش، عبارة عن هلوسة، بدأت أقرأ مرَّة ثانية:

«اسمي زهر مالك الحسن، مهندس، ثلاثون سنة، أخبأ الحشيش في الكتب، وأجد رابطًا بينهم، لا أرتدي إلَّا الجوارب المثقوبة، حين أشتري جوارب جديدة أقوم بثقبها من عند الرقبة، أمشي وفي جيوبي كمية من البخور، فقط أحب الرائحة!

استقلت من سنة، بعدما ضربت رئيس الشركة، كانت عبارة عن قعدة الحشيش فيها في كل مكان، ومع الهلوسة، صرت أتفوه بكل عيب فيه، سخرت منه، وتكلمت عن علاقتي بزوجته، حتى مد يده، وطالت يدي كذلك، فكانت النتيجة كسورًا مضاعفة، لم يقدم فيَّ أي بلاغ، فقط لم أذهب للشركة مرَّة أخرى.

الآن أتذكر ماذا تعني الفراديس المصطنعة، غير ما يعنيه بُودلير![1].

في نهاية الورقة وجدت ملحوظة:

لا تنسَ قراءة القصة!

أي قصة هذه؟

١ - **بودلير (١٨٢١-١٨٦٧) شاعر فرنسي مشهور.**

t.me/qurssan

فتشت جواري، لم أجد شيئًا، كذلك المنضدة فارغة، المكتبة ممتلئة بألف قصة، أي مجنون هذا، تذكرت أني صاحب الكتابة.

هنا لا يوجد شيء في مكانه، من التعب مِلت برأسي للأسفل، واضعًا يدي عليها، طرف كتاب كان يبرز من تحت الكنبة، شددته، لم يكن إلَّا غلاف أبيض، فتحته، بخط سيئ كتب بقلم جاف، قصة!

تأليف حشّاشٍ

الصفحة الثانية مكتوب فيها

رُوحِي مَقْبَرَةٌ، أسكُنُ فِيهَا وَأطُوف،[٢]

كَرَاهِبٍ فَاسِد، مُنذُ الأزَل؛

وَلاَ شَيءَ يُزَيِّنُ جُدرانَ هَذَا الدّيرِ البَشع.

الصفحة الثالثة وجدتُ خبر وفاتي مكتوبًا بخط يدي، وتحته صورة ضوئية للخبر، لم تكن إلَّا عبارة عن نص مكتوب على آلة الطباعة، بعد أن تأكدت من ذلك للمرَّة الألف، ذهبتُ إلى الصورة التي علقتها على الحائط، أنزلتها، وخلعتها من الإطار، بعد المطابقة، تبين أنها نسخة من تلك الموجودة في الصفحة.

---

٢ - الأعمال الشعرية الكاملة - بودلير - ترجمة: رفعت سلّام.

t.me/qurssan

الصفحة الرابعة كانت فارغة، وكذلك الخامسة، إلى أن وصلت إلى الثلاثين، كان عبارة عن رسم هندسي لمقابر الجبل الأحمر، عُلم فيه على حارة ألف، مقبرة رقم ثمانية، الصفحات التالية كانت فارغة، حتى وصلت للصفحة قبل الأخيرة، وجدت مكتوبًا فيها: أردت التجربة، فما كان مني إلَّا أن اخترعت قصة، بدأتها بخبر موتي، وأنا على قيد الحياة، واسترسلتُ في رسم الشخصية، حتى دخنت الحشيش، وجدتني، أطور الأمر، إلى أن أصبح تمامًا مثل أحلام اليقظة.

أنا ميت حي، أدخن الحشيش بشراهة، وأكتب عن أشياء غير موجودة.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

سمكةٌ في حَجم ورقة الخس

t.me/qurssan

t.me/qurssan

سمكة في حَجم ورقة الخس، رزقي هذا اليوم!

التصقت بالشبكة ولَم أعرها نظرة، الوحيدة التي أعطتني أهمية، فأنا صيادٌ منبوذ لا من البشر فقط، بل من السمك أيضًا.

زوجتي التعيسة الممتلئة صاحبة الأثداء والمؤخرة الكبيرتين، طوال اليوم لا تفعل إلَّا التغني بموال شأنه أن يُنزل عليَّ كل آيات السخط والعجز.

منعتني بالأمس من أداء الواجب المعهود كل خميس، ابتعدت عنها، عن أنفاسها النتنة بالبصل والثوم.

في السابعة حملت الشبك وإلى النهر، أتمنى ألا أعود مُحملًا بالخيبة، قد كرهتُ سماع ذاك الموال من تلك المرأة.

انقضت ساعة يتبعها ساعة، إلى أن صار الغروب قريبًا.

أسمع بالقرب من أذني موَّالًا:

ساعة وتغيب الشمس وساعة ويجي الليل

وينراد حيل ودمع ومنين أجيب الحيل

لا فائدة من كل هذا، أنا الصياد المنبوذ على هذا النهر وفي كل نهر، شددت الشبكة ووجدتها، لكن لَم أعرها نظرة.

في البيت وبعد أن ارتميت فاقد الحيلة والعزيمة، صاحت حتى اهتزت الجدران:

t.me/qurssan

- هـو دا الـزاد يـا آخرة صـبري؟ شـكلها ليلة قرديحـي. ودي هنعمـل بيهـا إيه؟

- دي!

- خرست ليه؟

- أصل...

- بلا أصل بلا فصل، انطق يا راجل؟

- دي للزينة يا فتحية!

- زينة!

- آه، زينة، مبقتش أكل سمك يا فتحية.

***

t.me/qurssan

ليل قابلة

كان ليـل، وصـوت وقع الأقـدام تداخـل مع صـوت القطار، في البعيـد غـرابٌ ينعـق، قريبًـا مـن السـاحل بنـتٌ في التاسـعة تعـزف عـلى الكـمان، كانـت السـيمفونية السـابعة.

النجـوم تراصـت في شـكل دائـرة، الموج يـزداد صوتـه، نيرانٌ أعدهـا للتدفئـة، لَم يجلـس بجانبـه إلَّا الكـمان وصاحبته.

بدأ يغني، صوته كان سيئًا، رغم هذا أكمل الغناء!

لَم ينقطـع، الموسـيقى مسـتمرة، النجـوم مـا زالـت في الدائـرة، والقطـار غـادر المنطقـة، وتداخل مع وقع الموسـيقى صـوت نذير شؤم!

كان قـد تجـرَّد من كل ملابسـه فـور أن غادرت البنـت صاحبة الكـمان، جلـس عاريًا أمـام النـار، لَم يكـن يصـلي، ولا كان يتأمل النار!

t.me/qurssan

جامـد، يرتعـش بـين لحظة وأخـرى، عينـه كانت صافيـة جدًّا بلونهـا الزيتـي هذا، لـن ترى النـار فيها رغم شـدتها، فقـط فراغ!

كرة شـعر فـوق رأسـه، وذقـن خفيفـة، ولسـان لا يتوانى عن إطـلاق اللعنات.

أمسـك ببنطالـه وأخـرج منـه قلـم رصـاص وورقـة، انتابـه الصمـت للحظـات معـدودة، ثـم بـدأ بالكتابـة.

عزيزتي سمرة،

أنـا منير، تركـت المنزل صباحًـا، هائم في شـوارع المدينة، حتى اهتديـت للسـاحل، مـن حسـن حظـي أننـي وجـدت موسـيقى الكـمان المحبّبـة إليَّ تُعـزف، وعجبًا مِـن مَن؟

بنـت في التاسـعة مـن عمرهـا، تعـزف السـيمفونية السـابعة لبيتهوفـن، اتخـذت مـن البحر والسـاحل مسرحًا وأوركسـترا لها، لَم أجـد في عزفهـا إلَّا الراحـة، عزفهـا شـبيه بعزفـك حـين كُنـتِ تعزفـين قديـمًا، وكالتلميـذ المأخـوذ بمُعلمتـه جلسـت أمامهـا، وأكملـت هـي العـزف، لَم ألتفـت للـبرد إلَّا بعـد وقـتٍ طويـل لَم أسـتطع فيـه تحريـك أرجـلي، قمـت وأحـضرت بعـض فـروع الشـجر الملقـاة عـلى السـاحل، وبآخـر عود ثقـاب لديَّ أشـعلتُ نـارًا للتدفئـة، كنت أتمنى أن أشـعل به سـيجارة، لكن للأسـف لَم يعـد لـديَّ نقـود لـشراء تذكـرة للحافلـة، أو حبـة فاكهة!

t.me/qurssan

سئمت من كوني فاشلًا، ومن تكرار أبيكِ هذه الكلمة، لا ذنب لي أنني لا أجد وظيفة حتى الآن يا سمرة.

أفتقد تلك الأيام ونحن صغار، حين كنا نلعب في الشارع لنصف الليل ولا نملُّ، حتى تنادينا أمكِ تاركين كُلّ شيء ونختبئ في حضنها، كنت حالة شاذة لأولاد الحارة، طفل مثلهم لكن دون أم وأب، لا يمتلك إلَّا نفسه، وهذه أشك فيها .

تتذكرين اسم والدتكِ؟

كم كنت أعشق هذا الاسم «قابلة»!

كان بالنسبة لي أغنية محببة أرددها، في كُلّ لحظة تعيسة كانت أو سعيدة.

الأولاد في الشارع والجيران كانوا يعتقدون أن هذا ليس باسمها، إنما وظيفتها، هي لَم تهتم بهم، المرَّة الوحيدة التي التقي فيها الاسم بالوظيفة التي انطبعت عليه، يوم ولادتي، وكانت هي القابلة، قابلتي أنا.

وبعد فترة أتت بكِ إلى الدنيا فتقابلنا، وصرنا لا نفترق.

إخوتكِ حمقى يا سمرة، ظنوا أن البعد أفضل وسيلة لكلينا، كرهوا حبي لكِ، تربصوا بي في كُلّ مكان ذهبتُ إليه، لكن لَم تفلح الخطة التي وضعها لهم أبوكِ لإبعادي عنكِ وعن

t.me/qurssan

أشجار البرتقال التي زرعناها بأيدينا في حديقة قابلة.

لَم يكن ذنبي أن مات أبي وأمي لا تزال في شهور حملها الأخيرة، ولا ذنبي يا سمرة أن ماتت هي بعد الولادة، ولَم يكن ذنب قابلة أنها أرادت تربيتي!

آخرة مرَّة قالها لي أبوكِ صريحة: لا زواج من سمرة، إنها غلطة من البداية منذُ أن أصرَّت قابلة أن تكونَ فردًا من العائلة، اعتقدت أنك ستعتبر سمرة أختًا لك، مُحرمة عليك، لكنك اعتبرتها عشيقتك، فكان لزامًا عليك أن تغادر البيت، ولآخر مرَّة أقولها لك يا منير، غادر ولا تعد إلى هنا، انسَ قابلة وسمرة، الدنيا واسعة، اختر منها ما شئت، إلَّا سمرة.

أفكر كثيرًا في الموت، في المغادرة دون إحداث أي جلبة، ليس جديدًا يا سمرة أن أموت غريبًا، كلنا نسير في هذا الطريق، منا من يبحث عنه برغبة شديدة، ومنا من يخاف منه ويبتعد عمن يذكره.

أنا الآن أذكره بكُلّ حرية، وأقبل يده الممدودة.

أتخلى عن كُلّ شيء إلَّا أنتِ يا سمرة، لكن لا سبيل للجمع بيننا في هذه الحياة.

لي أمنية واحدة أتمنى أن تحققيها يا سمرة، أن تعودي للعزف على الكمان مرَّة أخرى، إلى أن نلتقي في حياة ثانية.

t.me/qurssan

ملحوظة:

حاولت أن أجمع كُلّ ما لديَّ من ثروة، لكنك تعرفين أنني لا أملك إلا شيئين: المكتبة والكيان، هما لكِ يا سمرة.

أنهيت الكتابة، وطويت الورقة، ثم أتيت بحجر ووضعته فوق الورقة.

كنت لا أزال عاريًا، لا دفء يأتي إلَّا من النار بالجوار، عاد الغراب ينعق، الآن تُعزف السيمفونية من جديد، ما زالت النجوم في الدائرة، دخلت البحر حتى وصلت المياه لأعلى الصدر، وصرت كأنني أجلسُ على خشبة الموتى، بكل رضى أستسلم مُقبِلًا اليد الممدودة.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

مريض عَنْبَر رقم ستة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

تركوا لي كثيرًا من أعواد الثقاب المبللة، بضع فراشاتٍ ملونة نفقت في برطمان زجاجي، علبة تبغ من حقبة ماضية، راديو قديمًا من محطتين، إحداهما لأغاني اللهجة الشرقية، والأخرى للغربية.

تطل الشرفة الأمامية على مساحة لا تتجاوز العشرة أمتار من الخضرة، بناية مكوَّنة من ستة طوابق، لي فيها الطابق الثاني.

«أنت العاطي يا عاطي»، بوَّاب العمارة العمّ علي بات مصاحبًا لهذه الجملة، حديثه الدائر بين اللحظة واللحظة.

طبيب أمراض نفسية منذُ التخرج من خمس سنوات.

السبع سنوات التي قضيتها في الدراسة، كانت الجحيم متجسدًا في هيئة الأساتذة والكتب والأقسام المختلفة.

طبيب نفسي لا يستطيع الجيران إيقاظه في منتصف الليل من أجل حالة مستعصية، الميزة الوحيدة التي أتاحتها المهنة.

ليس لي عيادة ولا أحلم بها على الأقل الآن، راق لي العمل في المستشفيات رغم ما تسببه من ألم وكآبة، فالمرض النفسي أسرع انتقالًا من العضوي.

t.me/qurssan

بعد فترة التخرج والإعداد لدرجة الماجستير، عملت مع رئيس القسم في عيادته، لَم أتجاوز السنة، المرضى كانت أمراضهم تصيبني بالضحك، بل أحيانًا بالغثيان.

تعطلت الرسالة لمدة قصيرة بسبب ترك العيادة، كان بحاجة لي لمساعدته، لكنني تخليت عنه، هربت بقدر المستطاع عن عالمه.

عندما قدمت الاستقالة، نظر إلى الورقة التي كُتبت بخط طفلٍ في الابتدائية نظرة احتقار، ولبث صامتًا إلى أن خرج من فمه كلام كثير بالفرنسية، أعقبها كلام بلغة فرويدية أعشقها منذ أيام الجامعة، بعينه راح يتفحصني من الرأس إلى القدم، باشمئزاز قطع الورقة لنصفين متمتمًا: «مش وش نعمة».

ابتسمت حتى بانت الأسنان، وغادرت.

وجدت نفسي حرًّا، لا شيء يقيدني.

أنا حر، اللعنة على أمراضكم المضحكة.

من الغد هي مهمة واحدة التي تقع على عاتقي، معالجة المرضى الحقيقيين، من أثقلتهم الدنيا همًّا على هم، حتى وجد المرض النفسي سبيلًا إليهم.

«دخلت كلية الطب ليه، لَمَ أنت حابب الأدب قوي كده، وبتكتب ليل نهار، بدل ما ألاقيك ماسك سماعة ماسكلي كتاب؟!».

t.me/qurssan

الجملة الأخيرة التي قالها لي نائب رئيس القسم في سنة التخرج، لَم ألتفت إليه، قد تعوَّدت على هذا الكلام.

ليس ذنبي أن الأب والأم معًا قررا أن الابن الوحيد مجموعه الكبير في الثانوية أكبر من دخوله كلية الإعلام أو الآداب!

خسارة!

ماذا ستفيدك كلية الإعلام؟

بماذا ستفيدني كلية الطب؟

أنا ابني يدخل كلية الطب، هو المكان المناسب له.

كأنني عروسة ماريونت يحركونها بخيوط في أيديهم، ليس لي حق الاختيار، أو حتى القرار.

في السنة الأولى كنت أتلقى كثيرًا من المعلومات، أصبحتُ آلة تخزين عملاقة، ونهاية السنة يحين موعد التفريغ في ورقة.

من الحسنات التي أتاحتها دراسة الطب، هي حصولي على مصروف جيب يمكنني من شراء لوازم الدراسة، كنت أفضل الكتب الأدبية والروايات عن كتب الكلية، بات عندي مكتبة كبيرة، كتب ملقاة في كل ركن، وكتب الكلية رغم أن عددها كان كبيرًا بعض الشيء، إلَّا أنني وضعتهم أسفل المكتبة.

t.me/qurssan

على هذه الحال سبع سنوات، والأهل لا يعلقون كثيرًا ما دام يجتهد في مذاكرته، وسيتخرج لنا طبيب قلب كبير أو جراح مخ وأعصاب.

عند اختياري للقسم سببتُ لهم صدمة أطاحت بكل علاقة قوية بيني وبينهم.

- يا حبيبي هيفديك بإيه قسم الأمراض النفسية ده؟ راجع نفسك، عشان خاطري وخاطر أبوك.

- ده اختياري ومش هتنازل عنه.

- متضيعيش كل اللي عملناه!

- سيبوني أختار مرة واحدة في حياتي.

حين علم والدي بأن القرار لا رجعة فيه، وقف أمام الغرفة وقال: «من هذه اللحظة لا تخاطبني، مصاريفك مع والدتك، لا تسأل عني، وإن مت لا تمشِ في جنازتي».

كان كلامه يوحي بغضب شديد، كأنني قمت بإحداث شرخ تسبب في انهيار معبده.

ذهبت للأعمام وللأخوال، لكن لا مفر، كُتب عليَّ أن أعيش دون الأب.

خلي مستشفى العباسية تنفعك، لا تأتيني مصابًا بالجنون حينها .

t.me/qurssan

أصبحت مثارًا للسخرية في العائلة، شخص منبوذ لا يقترب منه إلَّا أمه، تهتم به رغم ما أصابها من خيبة.

قبل التخرج كتبت مجموعة قصصية وأرسلتها إلى دار نشر، لحسن الحظ نُشرت المجموعة مجانًا، وحصلت على مبلغ مادي ضمن عقد متفق عليه.

لم أعقد آمالًا كبيرة على أن يأتي أحد من الأهل، بيعت نسخ كثيرة من المجموعة، شكر فيها عدد من النُّقاد وتحفظ آخرون في الرأي، قبل نهاية حفل التوقيع لمحته جالسًا في نهاية القاعة يحدق فيَّ، رأيت في عينه تلك النظرة الحانية، نظرة الأب الفخور بابنه.

«أبي!»، خرجت في الميكروفون قوية، مما سبب له ارتباكًا بعض الشيء، التفت الحاضرين نحوه، دعوته بأن يتقدم، عندما جلس بجواري قدمته للحضور: «لا أعرف ما ينبغي عليَّ قوله، أنا هنا لقول كلمة واحدة»، نظر في عيني مباشرة، ورأيت الدموع على وشك السقوط: «أنا فخور بك»، قالها وغادر.

أنهيت اللقاء سريعًا، غادرت القاعة أبحث عنه في كل ركن، وجدته يبكي، رميت نفسي في حضنه، اكتمل الفرح بأن عدنا ثلاثةً كما كُنا في السابق.

t.me/qurssan

بعد مرور الموقف، أتى لي بنسخة من المجموعة: «وقعها لي لو سمحت»، ابتسمت حتى ابتسم، ومن الناحية الأخرى ابتسمت أمي.

«إلى أبي العزيز، مَن أفخر به في كل مكان، لم تكن في حاجة لتوقيعي، قد سبق ووقعت على كل النسخ بإهداء الكتاب إليك أنت ووالدتي».

احتضنتها، وبكيت كثيرًا.

- لِمَ البكاء يا عزيزي؟ صار لي كاتب وطبيب في آن واحد.

لَم ينقضِ على التخرج سنة كاملة حتى تُوفِّ أبي، وبعد سنتين تُوفيت أمي.

لَم يبقَ إلَّا الكتب وكثيرٌ من أمراضٍ نفسية.

- طيارة يا دكتور!

- ما لها؟!

- بتطير.

- ما طبيعي تطير.

- بقت على الأرض، اتقص جناحها، فقدت قيمتها، مبقتش طيارة.

هززت رأسي بالإيجاب، وغادرت العنبر في حسرة.

t.me/qurssan

أزمة عصبية حوَّلت المريض لفيلسوف كبير.

هنا ستشاهد القهر والفقر كيف يبتلعون إنسانًا، يبددون كلّ صلةٍ له بالعالم، ينسرق منه عقله كمّا ينسل الخيط، بطيئًا في غير عجلة من أمره، مخرجًا له لسانه بكلّ وقاحة.

المؤكد عندي الآن بعد ما قضيته من مدة تتجاوز الخمس سنوات، أن المرضى هنا ليسوا بمجانين، ولمَ يكونوا يومًا مجانين.

لنعكس الآية، العالم هو المجنون، لا نحنُ!

هذه هي الحقيقة، ومنها فلنتعامل معه على جنونه.

حرية، حرية!

- دكتور، مريض عَنْبَر رقم ستة، أُصيب بحالة من الهيجان، من نصف الساعة وهو يهتف بهذه الجملة، لا ينقطع عن ترديدها.

ذهبت سريعًا نحو العنبر لأشاهد ماذا يحدث.

التمرجي وأنا أمام العنبر، المريض ما زال يهتف عاليًا: «حرية، حرية!».

- هل أحضر له حقنة مهدئة يا دكتور؟

t.me/qurssan

- هـا.... لا، لا تفعـل، هـو لا يحتـاج لأي مهدئـات، هـو في أفضـل حـالٍ الآن.

- كيف؟

- هـو قـد شـعر بما يجـب أن يشـعر بـه أيُّ إنسـان، أيُّ إنسـان طبيعي .

- هل هتافه بهذا الشكل طبيعي؟!

- نعم.

- المـرءُ حـين يشـعرُ بآدميتـه، بحريتـه، حينها فقط، هو إنسـانٌ طبيعـيٌّ جـدًّا، مـا دون ذلـك ليـس بطبيعي، بل هـو ميت.

- أيهـا الطبيـب، إنـك وقفـت أمـام العنـبر في وجـه المريـض، تشـاهده وهـو يهتـفُ بكلـماتٍ غريبـة، يهتـف وقـد تملَّـك منـه الجنـون، شـاهدت هـذا ووقفـت سـاكنًا لا تفعـل شـيئًا، لم تقـدم لـه يـد المسـاعدة، تخليـت عـن مهنتـك، حـين فعلـت ذلـك، ونبهـك التمرجـي، فرفضـت، بل نهيتـه عن فعـل أي شيء لتهدئة المريـض، لإخراجـه من حالـة الجنون هـذه. إنك مـدان بجريمة، لا تقـل عـن الجنايـة! إن الطبيـب حـين لا يسـاعد مريضـه، فقـد أذنـب ووجـب عقابـه.

اجتمعـت الإدارة، وبعـد أن اسـتمعت إلى شـهادة البعـض، أقـرت الآتي: مـن اليـوم، أنـت موقـوف عـن العمـل.

t.me/qurssan

- كان ينبغي عليك أن تمنعه من الهتاف!

- هل أمنع إنسانًا شعر بآدميته.. بحريته، وأراد أن يستردها؟

- نعم، إنك لست بمحامٍ، لا، ولا لست بقاضي عدلٍ، ولا ذا منصبٍ رفيع في وطننا لتقرر أنه يحق له الهتاف. إنك لا شيء، فقط طبيب، أي لا شيء!

- أنا إنسان يا حضرة الطبيب، هل هذا يكفي؟

- إنك في حاجة ماسة لتكمل هذه الكلمة بلقب يؤهلك أن تقرر، وأن تفرض.

- هذا جنون، أنتم حثالة، حرام أن يُطلق عليكم بشر، أنتم بلا عقل، بلا ضمير، الأهم من ذلك وما أنا على يقينٍ منه، أنكم بلا قلب.

- المشاعر لا وجود لها في مثل هذا العالم!

- أنت مُخطئ، المشاعر أهم وأجل من أي شيء آخر، هي من تعرفنا على أي هيئة نحنُ.

- حتى ننتهي من التحقيق، والنتيجة معروفة من الآن لديك، فأنت في إجازة مفتوحة. نصيحة لك، عُد إلى كتبك مرَّة ثانية، علّك قد تجد هذه الصورة الخيالية.

- على الأقل يا سيادة المدير، هو الحقيقة، ما ينبغي أن نكون عليه.

t.me/qurssan

- لتفعل ما يطيب لك، انتهى الكلام.

هممتُ بالمغادرة، مشيت باتجاه حجرة المكتب، لملمت الكتب والأوراق، وَشددتُ البالطو الأبيض من على شماعته، خرجت، ثم صرتُ نحو الباب.

في الممر أثناء المغادرة، سمعتها تأتيني قوية مجلجلة.

نعم، لكن ليس بصوت واحد، بل بمئات الأصوات.

«حرية... حرية».

***

t.me/qurssan

إعلانٌ عن قلبٍ وحيدٍ

t.me/qurssan

t.me/qurssan

إعلان عن قلب وحيد وجدته مُعلقًا على بعض الجدران في الشارع، عبارة عن ورقة بيضاء مكتوب في منتصفها: «قلب وحيد» ورسمة لقلب منكسر، لم أجد توقيعًا، ولا أي معلومة أو وسيلة تدلني على صاحب الإعلان.

التقطتُ الورقة، عائدًا للمنزل أفكر كثيرًا في شأنها!

أقول في سري: إن كان صاحب الإعلان لا يريد أن يعرفه أحد أو يقابله، فلماذا علّق هذا الإعلان من الأساس؟

الشوارع ضيقة، النفوس كذلك، الناس تُصاب بالملل كثيرًا هذه الأيام، الناس بحاجة إلى الأمل، حتى هذا أصبح بالنسبة لهم مجرد سراب.

الخوف من التجربة ونتيجتها جعل الناس أكثر توقًا للعزلة!

يا الله كيف نشعر بكل هذا التناقض؟ ولمَ لا نحصل على ترتيب بداخلنا؟ لمَ هذه العشوائية المسيطرة على الحياة؟

لديَّ كنبة وحيدة في الصالة، كرسي هزاز من خشب الزان، ولوحات كثيرة لفان جوخ على سبيل المثال: لوحة دكتور غاشيه، وزهور عباد الشمس، وآخر لوحة رسمها قبل بضعة أيام من إطلاق النار على نفسه المسماة «على عتبة الخلود»،

حين أنظر إلى رسومات فان جوخ أصيح قائلًا: كيف استطاع أن يجمع كل هذا البؤس ويصوره، خصوصًا في لوحة

t.me/qurssan

دكتـور غاشـيه وعتبـة الخلـود، لم يكن مجنونًـا، ولا أنـا مجنون، ولا حتـى صاحـب هـذا الإعـلان عـن قلـب وحيد.

هنـاك في البلكونـة نبتـة نعنـاع وحيدة أيضًـا، زرعتهـا من فترة قصيرة لتكفي الشـاي، لكنها خابت ولم تظهر أي بادرة احترام لي، أحب النظر إلى النجوم، أود احتضان واحدة كطفلٍ يحتضن دُميته.

مـرات كثـيرة أجـد نفـسي في بئـر عميقـة فارغـة مـن المـاء، وأصرخ طالبًـا النجـدة، لكـن بعـد فـترة أتعـب منزويًـا واضعًـا رأسي بـين أرجـلي، ثـم أرفعهـا فأجـدني جالسًـا عـلى السريـر في البيـت، وملابـسي مُعفـرة بالـتراب، وعـلى وجهـي بقايـا دمـوع.

بعـد أن انتزعـت كُلَّ الأوراق المعلقـة بالأمـس عـلى الجدران، وجدتهـا مـرَّة ثانيـة معلقـة كما هـي، نفس الرسـمة وتلـك الجملة البائسة.

حـين وصلـت البيـت كان معـي عـدد لا بـأس بـه مـن تلـك الإعلانـات التـي لا ينفـك صاحبهـا أو صاحبتهـا في تعليقها على الجـدران المؤديـة لبيتـي، بعـد فـترة مـن التأمل فيهـا قمـت باحثًا عـن إطارٍ مناسـب لهـا، بالفعـل وجدت إطـارًا مرميًّـا في كراكيب كثـيرة في البلكونـة الخلفيـة، وضعـت الورقـة في الإطـار وعلقتها عـلى الحائـط بجـوار لوحـات فـان جوخ.

بـواب العـمارة يبـدو لي شـخصًا منتبهًـا، سـألته عـن ماهيـة الإعلانـات المعلقـة، لكنـه نظـر لي في حالـة ذهـول، نعـم أذكـر

t.me/qurssan

كيف كان حينها، كانت عيناه الصغيرتان غير المتناسبتين بالمرَّة مع وجهه تبرقان ويده تخبط على اليد الأخرى قائلًا: أي إعلانات يا أستاذ؟

- الإعلانات المعلّقة على الجدران ألا تراها؟

- لا توجد إعلانات يا حضرة، الجدران كلها نظيفة، لا يُسمح لأحد أن يعلق ورقة واحدة!

- «كيف؟ هل تقول إنك الآن لا ترى إعلانًا واحدًا معلقًا»، وأشرتُ بيدي باتجاه الجدران.

نظر لي، ثم اقترب من الجدران مثبتًا عينيه فيها متفحصًا، بل إنه كان يتشممها، قائلًا: «لا، ولا حتى أشتمُ رائحة صمغ أو دهان!».

صامتًا لا أتحرك، أبحلق فيه، ويدي ما زالت مرفوعة في اتجاه الجدار.

يمرر يده النحيفة على وجهي: «يصيح يا أستاذ، هل تراني؟ هل تسمعني إذنْ؟».

لم أرد، سقطت يدي من على الجدار وعيني من عليه، ومشيت.

في الخلف جملة واحدة يرددها: «حرامُ ما تفعله في نفسك، اذهب للطبيب، الجنون قريب!».

t.me/qurssan

أصعد السلم درجة درجة، وأذني لا تفارقها تلك الكلمة: «الجنون قريب».

وصلت إلى الشقة وارتميت على الكنبة الوحيدة في الصالة، وأنا أردد: «قريب ها!»، وأضحك ضحكة عالية، قائلًا: «ليس بقريب، لقد جاء، إنه هنا، هو معي، بل في رأسي».

أقوم من مكاني صارخًا في كل الأرجاء، أفعلُ مثل لوحة الصرخة، وأقع على الأرضية.

أنا الآن أرى النجوم في سقف البيت، وأحتضن واحدة منها مثل دمية، لم تكن السماء ذات لون أزرق، بل كانت حمراء دموية، وملامح وجهي باتت غريبة.

في الصباح وجدتني على الفراش، بجانبي حبات ليمون وبرتقال، رأسي ثقيلة بشدة، قمت من مكاني وتمشيت إلى الصالة، الباب مكسور، والسقف مرسوم فيه نجوم بقلم رصاص!

طرقات خفيفة أعرف صاحبها جيدًا، هو بواب العمارة لا أحد غيره، سلّم وجلس على الكرسي الهزاز المصنوع من خشب الزان، أخرج علبة السجائر، أشعل واحدة وأعطاني إياها، ثم أشعل واحدة غيرها، تنفس قليلًا منها، وقال: «ها، يبدو أنك اليوم أحسن بكثير من الأمس، حالتك كانت فظيعة».

t.me/qurssan

- ماذا تقصد بحالتي كانت فظيعة؟

- مرَّة ثانية! يبدو أنك تنسى كثيرًا يا أستاذ، بالأمس سمعنا صوت ارتطام شيء كبير، وأنت تعرف أنني أعيش في الدور الأرضي، حين سمعت ذلك الصوت صعدت للأعلى بسرعة، كنت أعرف أن الصوت قد أتى من شقتك، طرقتُ على الباب بعنف، لكن لا فائدة، ناديت على الساكن بالدور الثاني، ونزل ثم كسرنا باب الشقة، وجدناك مرميًّا على الأرض، وعينك بالسقف معلقة، حملناك لغرفة النوم، بعد فترة وجدناك تهذي ولم نفهم كلمة، صنعت لك زوجتي كمدات وناولناك بعض المسكنات، كانت الثالثة صباحًا حين استيقظت أنت ودخلت الحمام، حينها اطمئننا عليك، وتركناك.

حين سمعتُ ما قام بحكيه وتذكرته، أخذتُ أنفاسًا متتالية من السيجارة، حتى صارت عقبًا، فركته في راحة يدي.

بعد فترة من الصمت، شكرته وغادر.

أرجع برأسي للوراء، أرى السقف، أقول في سري: وما حكاية النجوم المرسومة على السقف بالقلم الرصاص هذه؟ كيف سقطت، وماذا كنت أفعل قبل أن أسقط، أنا لا أتذكر شيئًا، إلَّا يدًا ناعمة تلمسُ جبهتي، وبعض الأصوات المختلطة.

t.me/qurssan

مـا زال الإعـلان في الإطار، مـا زال صاحبه يبحـث عن قلب، فهو وحيد!

أردت النـوم، هكـذا بـكل بسـاطة، نمـت عـلى الكنبـة، وفي الحلـم وجدتنـي أمـرّ عـلى الجـدران المؤديـة للبيـت، أعلـق ورقة بيضـاء مكتـوب في منتصفهـا إعـلان عـن قلـب وحيد، ورسـمة لقلـب منكـسر، دون توقيـع أو عنـوان.

***

t.me/qurssan

كوبري سيدة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

كل يـوم تعـبر السـكة الحديديـة كأنـه العبـور الوحيـد، تخشـى ألَّا تعـود البيـت عـلى أقدامهـا، هـذا هـو حـال سـيدة وحـال القريـة جميعهـا.

اشـتكت المحافظـة وسـلالمها مـن أبنـاء القريـة، من أجـل بناء كوبـري للعبـور للناحيـة الثانيـة دون أن يفقـد أحدهـم رجـلًا أو ذراعًـا أو روحـه كاملة.

آخـر مـرَّة وقفـت فيهـا سـيدة أمـام مبنـى المحافظـة، راحـت تسـب كُلَّ عامـلٍ فيهـا مـن الصغـير حتى الكبـير، بُـح صوتها ولَم يعرهـا أحـد أي انتبـاه، أو كلـف نفسـه قـول كلمـة تريح.

سـيدة لا تتعـب من السـؤال والوقـوف تحت الشـمس تناجي السـاكنين في أعلى البناء ذي الكتلة الإسـمنتية مثـل رأس العاملين به .

فقـدت ابنتهـا الوحيـدة ذات العـشر سـنوات حـين مـرّ قطـار لَم يكـن في الحسـبان محـولًا جسـدها إلى قطـعٍ صغـيرة عـلى قضبـان السـكة.

رحلـت ابنتهـا وبقيـت سـيدة تذهـب لمبنـى المحافظـة كُلَّ يوم مـن بعـد قضـاء الأربعـين، لكـن بقـي الحـال كـما هـو عليـه، لا تسـتطيع الدخـول أو التحـدث لمسـؤول، كل مـا نجحـت فيـه أن تـصرخ وتستسـمح كـي يسـمعها أحـد.

t.me/qurssan

وقفت سيدة أمام المبنى تصرخ قائلةً: «حرام يا ناس قرية بأكملها على سكة القطر مفيهاش كوبري يعدي من عليه الناس؟».

- وأنتِ مالك أنتِ يا ست، ليكِ حد مات هناك؟!

- ليَّا عمري كله، بنتي اللي مكملتش عشر سنين.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يرحمها، ما تطلبوا من النايب عن القرية يطلب من الحكومة تعمل كوبري.

- النايب! مفيش حد عبرنا يا اخويا، ولا هيتعمل الكوبري في سنته، باين إحنا اللي كوبري للنائب وللحكومة.

عادت سيدة تجر خلفها أذيال الخيبة وذكريات سبَّبت جروحًا لا مداوي لها، تنعي حظها وحظ القرية، حتى خالها الناس قد جُنت، عبرت السكة غير عابئة بأي قطار قد يفاجئها حتى وصلت للبيت.

ارتمت في حضن أختها الصغرى، قد انتقلت للعيش معها بعد وفاة ابنتها «سُنية»، بيت حفيظة لم يكن يبعد عن بيت «سيدة» الكثير، شارع فقط، عبارة عن دور واحد مكون من ثلاث غرف وصالة وحمام ومطبخ، «حفيظة» لم تُرزق إلَّا بولد عمره أربع سنوات، وزوجها يعمل في البناء.

t.me/qurssan

مـدَّدت سـيدة جسـدها عـلى السريـر ورفضـت أن تـأكل، صرخـت حفيظـة فيهـا:

- هتموتي! اللي بتعمليه ما منوش فايدة.

- مش مهم.

- سُنية مش هترجع بعنادك دا!

- عارفة، المهم ما فيش حد تاني يموت، هي كفاية!

- أنتِ حرة، الأكل جنبك، أنا داخلة أنام.

أكلـت سـيدة مـن صحـن العـدس بعـد أن غـادرت أختهـا، بقيـت في فرشـتها مُلتفـة ببطانيـة متهالكـة عمرها من عمر سُـنية، قـد اشـترتها حين علمـت أنها حامـل، ومـن سـاعتها لا تلتف إلَّا بها.

في الليـل بعـد أن عـاد زوج حفيظـة وأتم عشـاءه، دخـل غرفة النـوم فـورًا دون أن يلـف حتـى سـيجارة لـه، تعجبت سـيدة من هـذا فهـي تعرف جيـدًا طباعـه فهـو ابن عمهـا وتعـرف أنه حين ينتهـي مـن طعامـه يقـوم بلـف سـيجارة مـن تبغـه الرخيـص مع كـوب شـاي ثقيـل، تبعـت حفيظـة زوجهـا حتـى غرفـة النـوم، وسـألته مـا به.

- وحشـتيني! مـن سـاعة مـا سـيدة بقـت بتنـام عندنـا، وأنـا مـش عـارف أتلـم عليـكِ.

t.me/qurssan

- اختشي يا سعيد، سيدة برّة وهتسمعنا، والواد لسه نايم.

- مش هيصحا صدقيني، وسيدة زمانها نامت.

- إنت عارف إنها بتفضل صاحية.

- يووووه!

- خلاص يا سعيد، بس من غير صوت والنبي!

كالعادة لم يزر النومُ سيدة، تسمع من الغرفة المجاورة تأوهات أختها وزوجها الذي لا يشبع، ورغم حرص حفيظة ألَّا تصدر أي صوت، فقوة زوجها المفرطة تجعلها تتأوه بشدة.

سيدة لا تبالي بهذا الأمر، فمنذ وفاة زوجها عبد العال بعد مولد سُنية بثلاثة أعوام، رضيت بقضاء الله ورفضت الزواج.

بعد عناء كبير مع النوم كحال كُلّ يوم نامت سيدة بعد الفجر، وقررت ألا تذهب لمبنى المحافظة، صعدت للسطح وأطعمت طيور أختها، فما زالت نائمة، وضعت العيش المبلل وبقايا طعام الأمس للطيور، وجلست تشاهد القرية.

يا سلام يا ولاد، بلدنا حلوة بس من فوق، لو شوفتها من تحت تصعب عليك نفسك، ومش بعيد ترمي روحك، لو يتلموا حواليا وإيدهم تبقى في إيدي لتتغير حاجات كتير، البلح قرب يطيب والحر بيشتد، سُنية كانت بتحب البلح الأمهات والزغلول.

t.me/qurssan

مـن بُكـرة هـاروح المحافظـة، مـش هسـيب حقـك يـا سُـنية ولا حـق النـاس دي كلهـا، حتـى لـو مـش عايزيـن يتحركـوا، أنـا مـش هسـكت.

مـر اليـوم كسـابقه باختـلاف أن كان العشـاء بصـارة وعيـش درة، ونامـت سـيدة مبـاشرة لأول مـرَّة، فتحت عينها عـلى خناقة بـين حفيظـة وسـعيد عـلى مـصروف البيـت الـذي لا يزيـد بـل ينقـص كُلّ يـوم، وبعـد أقـل مـن سـاعة غـادرت تجـاه المحافظة.

في الثامنـة كانـت تقـف أمـام المبنـى مـع دخـول الموظفـين لأماكنهـم، سـيدة كانـت تسـميهم بالملـح وجـوده يكمـل الطبخـة ويسـاعد عـلى تسـويتها، اشـترت رغفـين فـول وواحـد فلافـل، وراحـت تأكلهـم وهـي تتابـع بعينهـا التـي لا تمـل، صاحـب العربـة يعرفهـا جيـدًا فهـي تشـتري منـه في كُلّ مـرَّة تـأتي فيهـا، يدعـو لهـا ولابنتهـا، ويشـاركها الدعـاء عـلى أصحـاب البـدل السـوداء.

أنهـت الإفطـار، وحـين رأت عربـة المحافـظ انطلقـت مُسرعـة ناحيتـه، أخرجـت بطاقتهـا ووقفـت أمـام البـاب، حتـى إنهـا سـبقت الحُـراس وقامـت بفتحـه:

- يـا سـعادة البيـه أنـا سـيدة، مـن قريـة التحويلـة، عشـمانة تبنـوا فيهـا كوبـري، لأجـل مـا النـاس تعـدي مـن عليـه، بـدل

t.me/qurssan

سكة القطر اللي كُل يوم واحد يموت عليها، كفاية بنتي سُنية ماتت.

- عارفك يا سيدة، بس الميزانية متسمحش، وبعتنا للنائب بتاعكم، وقال مفيش سيولة ولا حتى تبرعات الناس تسمح، وبعد إذنك عشان عندي اجتماع مهم.

- بس ده كان واعدنا، والمحافظة وعدتنا، كُلّ واحد عايز مصلحة من التحويلة بيوعدها بكوبري ومدرسة جديدة، ولا حاجة بتتعمل، ده حتى الوحدة الصحية في يوم هنصحا ونلقاها كوم تراب.

رجعت سيدة تجلس بجوار عربة الفول، وصاحبها يهون عليها:

- ربك كبير يا بنتي، كُله بأوانه، ارمي حمولك على الله.

- ما أنا رامياها من زمان، وراضية.

لملمت نفسها، وأخذت توصيلة للقرية، كانت تبكي بشدة، وحين يسألها أحد لماذا تبكي، كانت تقول: بنتي ماتت.

غادرت العربة، ووقفت على شريط السكة، المارةُ يخبرونها بأن تتحرك، وهي ترد عليهم: «مستنية قطر يودني لبنتي!».

***

t.me/qurssan

بيسوا وأنا

t.me/qurssan

t.me/qurssan

كنت كلمَّا أود الهروب من بؤس الحياة وشقائها، تقع المصائب والويلات على رأسي مهشمة إياه إلى قطع صغيرة، كل قطعة منها في ركن بعيد، وأظل طوال الليل أجمع في القطع، حتى أعيد تركيب رأسي مرَّة ثانية، علَّ هذه المرَّة تتقبل الحياة بمَّا فيها، تصمت عن التفكير ولو قليلًا.

وخوفًا من تحولي بمرور الأيام إلى دمية قطنية تتشرب كل ما تودُّ الهروب منه، ألجأ إلى حضن أمي طالبًا الحماية!

عمري سبع وعشرون، ورغم هذا أخجل من احتضانها!

رغم الخجل، احتضنتها، وبعد انتهاء الحضن، روحتُ أهيمُ وأغرق في كتبي!

كنت أعرف مسبقًا في أي الكتب سأبدأ القراءة.

بخفة شديدة التقطتُ الكتاب من المكتبة، أعددتُ كوبًا من الشاي، على مهلٍ شديد بدأتُ في التهام هذه الوجبة الدسمة.

عفوًا لن أخبركم اسم الرواية!

يوم كامل على هذا الحال، لا أفعل شيئًا إلَّا تناول الشاي مع الوجبات الخفيفة بين الحين والآخر، بجانب الوجبة الرئيسة بالطبع التي شرعت فيها صباحًا بعد حضن من أمي.

t.me/qurssan

مبهجٌ صحيح أن تشرع في القراءة بعد حضن!

لوهلة توقفت عن القراءة، بقيت صامتًا، التقت عيني في هذه الأثناء بجملة قائلها بيسوا:

«أريد أن أفقد عادة الصراخ نحو الداخل!».

بقيت محملقًا في الجملة، لا أستطيع عبورها، أحدث نفسي: نعم أنا هذا الشخص، أنا مَن يصرخ بداخله، يصرخ صرخة تُحدث شروخًا في كل ضلع بداخله. لا أحد يسمع، لا أحد يأبه.

لكنه لم يتعلم الصراخ أبدًا نحو الخارج في وجه كل شيء قبيح وظالم، هذا خطؤه هو فقط!

كان صراخه نحو الداخل، الداخل وفقط!

أحيانًا أجد نفسي أفعل أشياء غريبة، أمورًا طائشة، ولا أفقه لماذا أنا أفعلها!

«هذا نتيجة للمرض الذي أنت مصاب به»، هذا ما أخبرني به طبيبي النفسي، في آخر جلسة بيني وبينه.

لا أخفي عليكم أنني مصاب بمرض اضطراب ثنائي القطب، تمامًا كما كان فرناندو بيسوا شاعري المفضل مصابًا به.

t.me/qurssan

نصحني الطبيب بتناول بعض العقاقير التي تُسمَّى بمثبتات المزاج! وهل يعقل أن يكون للمزاج ثبات على حال ولا يتغير؟

أذهب للطبيب سرًّا، ما يقرب الآن من شهرين وأنا أتردد عليه، أتناول جرعات العلاج مثل «التوبيرامات» و«الغابابنتين» وأشياء أخرى لا أذكرها تنتهي بحرف النون!

أعرف أنه من الخطأ عدم إخبار الأهل أو بعض الأصدقاء بمرض كهذا، لكن أنا أيضًا مُصاب بمرض لعين اسمه «الخجل».

منذ ذلك اليوم وكلمات بيسوا تلاحقني في كل مكان، ولا هرب من ذلك، أنا أحب بيسوا وأشعاره، نصوصه ورسائله، حتى معطفه وقبعته ذات اللون الأسود.

أنا تعبٌ، عيناي حمراوان من فرط السهر، والنظر في الكتاب، بين الحيرة في الاستسلام لنوم عميق، أو استكمال الكتاب والبقاء مع بيسوا مزيدًا من الوقت!

في الأخير تغلَّب النوم على كل شيء، نمت في مكاني حاضنًا الكتاب، كأنه حبيبة لي أخشى بُعدها عني.

مكان غريب وجدت نفسي فيه، الشمس قوية، الأشخاص غرباء أو أنا الوحيد الغريب هنا.

t.me/qurssan

في أي حلم وقعت؟

لو أن والدتي هنا، لقالت على الفور: هذا نتيجة القراءة الكثيرة، والعوالم المتخيلة في ذهنك.

ربما هو حلم، ربما هو واقع!

لكن كيف أعرف أن هذا حلم أم واقع؟

لم أفكر كثيرًا بشأن هذه الألغاز، بخطى الخائف والغريب عن المكان روحت أتجول فيه، محاولًا استكشاف معالمه.

بناء حجري ضخم له قبة!

بلغة عربية أسأل، لا أحد يفهم، بصعوبة ازدردت ريقي وحاولت التحدث بلغة إنجليزية.

أتت المحاولة بنتيجة، أخبرني أحد المارة أن هذا المكان وهذا البناء الواقف أمامه هو دير جيرونيموس!

خلفه رددت الكلمة، مجزئًا إياها كمحاولة للفهم هكذا:

دير- جيرو- نيموووس!

يهز رأسه.

أشكره، ويغادر.

t.me/qurssan

هو بناء حجري ضخم له قبة، أنا أعرف هذا المكان ربما قرأت عنه سابقًا، أحاول التذكر، لا جدوى من ذلك.

جلست على مقعد خشبي أمام البناء متأملًا إياه، صوت موسيقى هادئة تأتي من بعيد، إيقاعها جعل رجلي اليمنى تتجاوب معها.

أتفرج على المارة محاولًا عدم التورط في أى شيء، أعاين ما يحدث أمامي بصبر وعن كسب، بالتأكيد أنا في حدث غريب واستثنائي، لنستمتع إذنْ بهذا المنظر، تلك اللوحة الحية أمامنا الآتية من عصور عابرة.

خائف من أن يعترضني شرطي ويطلب جواز السفر!

كيف سآتيه أنا بجواز السفر؟ وهل للأحلام تأشيرات أو جوازات للسفر؟

الآن فقط أعلم أن هذا حلم، وكيف لا يكون حلمًا؟

لا بد أن يكون لهذا الحلم مغزى! وإلّا كان هذا الوقت هباء، وإن لم يكن لهذه الحكاية مغزى فعلى الأقل قد استمتعت قليلًا بالمنظر، وبالموسيقى ذات الإيقاع الجميل الذي بات مُحببًا لأذني.

اتخذت قرارًا بدخول الدير وليحدث ما يحدث إن اعترضني أحدهم.

t.me/qurssan

ما علاقة الزمن بالصدفة، هل لهما دخل فيما أنا واقع فيه؟ ولماذا أصر على دخول الدير، ما الذي ينتظرني بالداخل؟

صعدت درجات سلم الدير، الحراس لا يمنعون أحدًا من الدخول، الحظ في خدمتي هذه المرَّة ربما تكن المرَّة الأخيرة، فأنا أعلم حظي جيدًا.

بخطى الذاهل وطأت قدمي المكان، أتلفت يمينًا ويسارًا، عيناي معلقتان بالسقف بالنقوش والزخرفات، أذني يخطفها الحديث الدائر بلغة لا أفهمها قريبة من الإسبانية! يداي في جيب البنطال الأسود، الآن فقط ألاحظ أني أنتعل حذاءً!

أتنقل في كل ركن، فجأة أسمع مجموعة قريبة مني تُذكر من حين لآخر اسم «بيسوا»، أقترب منهم، لا بل أحاول الالتصاق بهم!

يشيرون بأيديهم على علامات فى خريطة صغيرة، ظهرها أبيض ووجهها أخضر، فتاة شقراء ذات عين زرقاء تشير نحو باب خشبي، يتبعونها، أتبعهم وأسير خلفها.

أحاول التكلم مع أحد الأشخاص في المجموعة، يستجيب أخيرًا للغتي الإنجليزية الضعيفة المرهقة، ما فهمته أنهم متجهون لقبر ما!

t.me/qurssan

يُحدث الباب الخشبي صريرًا، تدخل المجموعة بالكامل، أسمع دقات قلبي، أنحي رأسي.

تتكلم الفتاة، تركيب الغرفة جعل لصوتها صدى، تشير نحو القبر بابتسامة جميلة قائلة: «نحن الآن فى البرتغال، مدينة لشبونة، بالقرب من شاطئ أبرشية، دير جيرونيموس، تحديدًا أمام قبر الشاعر أنطونيو فرناندو بيسوا!».

أضع يدى على فمي حتى لا أصرخ، يا للمفاجأة!

أي أمنية هذه التي تمنيتها، كيف وصلت إلى هنا؟

أنا الآن بجوار بيسوا الذي مات وعمره سبع وأربعون سنة تمامًا مثل السن الذي تُوفِّي فيه أبي، يا للمصادفة الغريبة.

كيف يمكن أن يكون التشابه بيني وبين بيسوا هكذا؟

اقتربت مني الفتاة التي كانت تتحدث بلغة إنجليزية قائلة: «يبدو أنك مشدوه تمامًا للحد الذي جعلك مسمرًا عينيك على قبر بيسوا، ولم ترفع عينك نحوي!».

ها... أنظر إليها، أجمع الكلمات في رأسي، إنها جميلة بحق!

بصعوبة أقول: «بيسوا شاعري المفضل وقد قرأت كل ما كتبه، كيف لا أكون مشدوهًا إلى هذا الحد، وأنا

t.me/qurssan

واقـف أمـام قـبره؟ كـما أنهـا المـرة الأولى التـي أكـون فيهـا هنـا، اعذريني أني لم أكـن أنظـر إليـكِ، لكننـي كنـتُ منتبهًـا إلى كلامـك جيـدًا».

- أنـا أيضًـا أعشـق بيسـوا، وهـو مـن شـعرائي المفضلـين، حتـى إني درسـت الشـعر والكتابـة الإبداعيـة بسـببه.

- عظيـم، أنـا أيضًـا أحـاول الكتابـة، لكـن هـي محـاولات في طـور بدائـي.

- مهما كان مستوى كتابتك، فيجب أن تكون فخورًا به.

- عندك حق في هذا.

تبتسـم، يـبرز جمالهـا أكثـر، هـذه الأعـين الزرقـاء وهـذا الشـعر الأصفـر الناعـم، مـع بعـض النمـش القليـل عـلى أنفهـا ووجنتيهـا المورَّدتـين، يـا الله لم أرَ جمـالًا مثـل هـذا مـن قبـل!

تشير بيدها أمام عيني قائلة: إلى أين ذهبت؟

- عفوًا، لقد كنت أفكر.

أقول سرًّا: لا بل كنت غارقًا في جمالك!

- هـل تسـمحي لي أن أقـول لـكِ شـيئًا، لكـن لا تعتـبري كلامـي نوعًـا مـن تخطـي الحـدود.

- تفضل

t.me/qurssan

- أنتِ جميلة جدًّا، لم أكن أعتقد يومًا أنني سأشاهد أحدًا بهذا الجمال.

صمتُّ قليلًا، الابتسامة لم تغادرها، تنظر في عيني، وتقول: شكرًا، هذا لطف منك.

أرد سريعًا: صدقيني هذا الكلام ليس بمجاملة، واغفري لي لغتي الإنجليزية الضعيفة.

- لا عليك، كما أني لم أعتبر كلامك مجاملة، ولغتك ليست بضعيفة طالما أننا ما زلنا نفهم بعضنا، وأشكرك مرَّة ثانية.

نظرت نحو مجموعة من الكتب في يدها، أخرجت كتابًا وقالت: «أرجو أن تقبل مني هذه الهدية، هو كتاب لبيسوا يحوي بعضًا من نصوصه ورسائله».

أخرجت قلمًا وفي الصفحة الأولى كتبت «إلى صديقي الغريب».

بفرح طفل أخذت الكتاب: «شكرًا لكِ، هذه أجمل هدية حصلت عليها في حياتي».

غادرت ملوحة بيدها، ولم يتبقَّ إلّا أنا وقبر بيسوا والكتاب الهدية منها.

t.me/qurssan

صحوت من النوم، أنظر إلى الساعة، هي الآن الثانية بعد منتصف الليل، أتمتم: «حلم جميل، آه لو يتحقق».

أطوح يدي، يقع كتاب من جواري، أقوم فزعًا، ألتقط الكتاب، ما هذا؟

إنه الكتاب الذي أعطتني إياه الفتاة في الحلم! ما الذي أتى به إلى هنا؟

فتحت الكتاب على صفحة الإهداء، قرأت بالإنجليزية جملة «إلى صديقي الغريب» مرارًا وتكرارًا، بعد تنهيدة طويلة قلت: «كُلّ شيء في الأحلام جائز».

***

t.me/qurssan

عين القطة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

وكُنتُ كالسكران لا أعي لنفسي حالًا، كُلّ ما أذكره أن الدنيا ضاقت بي، فسعيت في رحابها طالبًا بعض الراحة أو أنفاسًا قصيرة من قبضتها الكئيبة.

مشيت في شوارع القاهرة كثيرًا، شوارع لا نهاية لها، لم أتعب من السير! بات محببًا لي، اعتبرته مهربًا حيث لا مهرب مما يحدث!

أذكر أنها كانت ليلة القمر الدامي، ظاهرة لا تحدث كثيرًا.

جلست على مقعدٍ خشبي انعكس عليه اللون الأحمر المنبعث من القمر، أضم صدري بيدي النحيلة، أرغب بشدة في سيجارة، أي نوع، فالجائع لا يرفض اللقمة من اليد الممدودة.

الشارع فارغ تمامًا من الناس، لا يوجد به إلَّا بعض الكلاب والقطط الضالة، وأنا.

لا أعرف ما الذي جعل الكلاب تنبح بهذه الطريقة، والقطط تصدر هذا المواء المزعج، أعين القطط هذه الليلة كانت تلمع بشدة، لكنها لم تكن متعلقة بشيء إلَّا بالقمر!

انتبهت لذلك حين وجدت الكلاب تقطع الشارع ذهابًا وإيابًا، أما القطط فكانت ثابتة في مكانها تموء بطريقة وحشية، أنظر إليها فأجد أعينها ذهبت بعيدًا نحو القمر.

t.me/qurssan

أحب الألغاز، وأقضي ساعات طويلة في حلها، عشقت الرياضيات منذ الصغر، لذا كنت دائم البحث عن أي مسألة حسابية تحتاج لحل، كبرت ودخلت كلية الهندسة وتخصصت في الميكانيكا، رغم هذا لم أعتبر الدنيا مجرد لغز أو عملية حسابية معقدة تحتاج وقت طويل لحلها، وربما ذلك الوقت هو عمرك! لكن أنا أعتبرها بسيطة حتى وإن بدت معقدة تشتهي تدمير خلايا الدماغ.

تقدمت قطة بيضاء اللون في منتصف الشارع، وبدأت تموء كأنها تنادي على أحدهم، وتنتظر الرد!

انتظم خلفها كُلّ القطط الموجودة في الشارع، حتى القطة العرجاء المختبئة في كرتونة ورقية التي قدمت إليها من دقائق بقايا ساندويتش فول، وبدأو يفعلون مثلها تمامًا كأنهم كورال، لكُلّ منهم صوت مطلوب منه أن يبذل قصارى جهده في أدائه.

الغريب أن السكان لم ينزعجوا من هذا الصوت!

أربعة عواميد إنارة فقط في هذا الشارع الطويل، واحد بجوار المقعد، وآخر على أول الشارع، والثالث في نهايته، ورابع أمامي.

القطط كانت تقف أمام القمر تمامًا خلف قائدتهم، تموء مثلما تفعل، وتصمت إذا صمتت

t.me/qurssan

مـا أشـاهده أمـام عينـي يجعلنـي أُجـن، أمْ أنـا بالفعـل قـد جُننـت، أم أن هـذا تأثـير الفـول!

مـا حـدث كان كصدمة طائـر غريب، ارتعش جسـدي بأكمله حـين شـاهدتني في مرايـا كبيرة معلقـة في الهـواء في هذا الشـارع، انتظمـت القطط أمـام المرآة الكـبري المواجهـة لي، تقدمت نحوها بخـوف شـديد، بـدا شـعر رأسي في المـرآة أبيـض كثيفًـا، كذلـك ذقنـي، وزني زائـد، وأحمـل في يـدي عـكازًا، مـا أشـاهده الآن شـخص يشـبهني، لكن في زمن آخر، أو عمره أكبر مما أبدو عليه.

اقتربـت أكثـر حين وجـدت شـبيهي يتحـرك أمامـي في المرآة، كأنـه يمـشي في طريـق طويـل، العـرق يغمـره، عينـاه حزينتـان بشـدة، ويحمـل في يـده اليـسرى باقة مـن عبـاد الشـمس، الزهرة المفضلـة عنـدي، إلى أيـن يذهـب، ولمـن هـذه الباقـة؟

بعـد دقائـق، مَـدَّ يـده بباقـة الـورد نحـوي، نعـم عـبرت يـده مـن المـرآة ولمستني، يـده فقـط لا جسـده بأكملـه، أخـذت الباقـة وتحرّكـت للأمـام مسـافة قدمـين حتـى دفعتنـي القطـط داخـل المـرآة!

وقعـت في عـالم غريـب، كانـت الرحلـة إليـه دقائـق معـدودة كأن تسـقط في بئـر لا تعـرف نهايتـه، أثنـاء السـقوط كُنـت أشـاهد حجـارة البئـر تتحـرك ناحيتـي وتضغـط عـلى جسـدي، تعـصرني بقـوة، كأننـي وُضعـت في خـلاط، وتـم

t.me/qurssan

تشغيل الكهرباء فأصبحت أدور فيه ولا أعلم متى يتوقف.

سقطت على الأرض كأني حبة برتقال تسقط في غير أوانها، وجدت كُلَّ القطط التي تركتها خلفي تقف أمامي، وتدفعني ناحية كُرسي عملاق يجلس عليه رجل ذو هيئة غريبة لا يرتدي ملابس، عيناه تُشبهان أعين القطط، وحين تكلم بدا صوته شبيهًا بهم، تقدم نحوي متجاوزًا السلالم الكبيرة، وفي لحظة كانت عيناه تُحملقان فيَّ باتساعهما الكبير، تراجعت خائفًا، فكرت في الهروب، لكن كيف مع هذه القطط وهي تمتاز بالسرعة، وفي عالمها الذي لا أعرفه؟

بقيت صامتًا أنظر ناحية الأرض، كُلَّ جسدي يرتجف وقلبي ينبض بسرعة رهيبة كأني اجتزت للتو سباق خمسمئة متر!

وضع يده المُشعرة بشدة على كتفي، وراح يقول بصوت يحاول جاهدًا أن يبدو هادئا:

«لا تخف، أنت في عالمٍ مُختلف تمامًا، عالم القطط!».

- القطط؟

- نعم، الهيئة غريبة لا تتفق مع هيئتهم، لكن الصوت قريب، وهذا الشعر الكثيف، وهذه الأعين التي تُشبهك!

- تُشبهني أنا؟

- نعم هذا هو السر في اختيارك، أين باقة الورد؟

t.me/qurssan

«الـور... ورد»، نظـرت بجـواري فوجـدتُ الباقـة مرميـة، انحنيـت بصعوبـة لالتقاطهـا، لكنـه سريعًـا قـال: «لا عليـك، سـألتقطها أنـا، فَيـدك مُكبلـة».

- هـززت رأسي، وبالفعـل التقطهـا مُسـتندًا عـلى ذراعـيَّ، نظفهـا جيـدًا مـن غبـار تراكـم عليهـا ووضعهـا في يـدي.

- لا تفلتهـا ثانيـة، وجـودك هنـا مرهـون بمدى اسـتجابتك، وسرعـة البديهـة عندك.

كُلّ القطـط كانـت تقـف بجـواري إلَّا القطة البيضـاء الكبيرة، كانـت بعيـدة تنظر إليَّ بشـدة كأنها تـود أن تخبرني بـشيء أو تنبهني مـن فعـل شيء أحـق أنا مُقبـل عليـه، لا أعـرف فنظـراتي ناحيتها انقطعـت، حـين وجدتـه منزعج قائـلًا: هـا الوقت يمـضي، نعلم جيـدًا أن حياتـك بشـعة، اختيـارك لم يكـن سـهلًا، قـدرك هو مَن سـاقك إلينـا، باقي بضع سـاعات والقمـر الدامي سـوف يختفي، ونضطـر للانتظار سـنوات كثـيرة لظهوره.

- أنـا لا أفهـم شـيئا ممـا تقولـه، لِمَ أنا؟ ومـا هذا الجنـون الذي يحـدث؟ وأيـن أنـا؟ وماذا تـود أنـت وقططك؟

- اهـدأ يـا فتـى، الرياضيـات علّمتـك التفكـير بسرعـة وفي دقـة، أرى أنـك متوتـر بعـض الـشيء، وهـذا جيـد، مـن حقـك أن تفهـم. حسـنًا، كـما قلـت نحـن عـالم القطـط، وأنـا كبيرهـم، بالأحـرى كبـير القبيلـة هـذه فقـط، القطـط الموجـودة هنـا، هـي

t.me/qurssan

ليست قططًا بالضبط كان لها في السابق حياة مختلفة، جميعهم من البشر سواء نساء أو رجالًا، لكن فقط العذارى، كيف أتوا إلى هنا، القمر الدامي ظاهرة لا تحدث كثيرًا، تضيف نوعًا خاصًّا من السحر على البشر والحيوان، تجعل الاثنين قادرين على الولوج في جسد بعضهم البعض، هؤلاء كلهم اختاروا حياة القطط على مدار أعوام مديدة، تسأل عن هيئتي؟ امم أصبحت هكذا لأنني تأخرت في الإجابة، فأصبحت نصف إنسان ونصف قط، نعم لا تستغرب، كُلَّ شيء جائز، كنت مثلك غير مصدق، أدَّعي أن هذا مجرد خرافة، لكن لا تقع في هذا الخطأ. معك من الآن ثلاث ساعات لتخبرنا بالإجابة!

- خذوه بجوار البئر، ضعوا له بعض المياه.

بالفعل وضعوني بجوار البئر، تاركين لي بعض زجاجات المياه، شربتُ كثيرًا، وبدأت أفكر ماذا أفعل.

ساعة ذهبت هباءً، لا أخرج بحل، أتذكر أصدقائي وأحبابي القلائل، حياتي التعيسة في شكلها، لكن تخللتها السعادة أيامًا، عملي الذي أحبه، ورغبة الحياة عندي حتى وإن كانت حياة هامشية.

في الساعة الثانية والثالثة حدثت أشياء غريبة، وجدت القطة الكبيرة مجتمعة مع باقي القطط، تحادثهم بلغتهم، وينظرون ناحيتي بين اللحظة واللحظة.

t.me/qurssan

انشغلت بهم لربع ساعة، بعد ثلث ساعة أخرى من التفكير، تقدمت ناحيتي القطة البيضاء، كانت تتكلم كلامًا أفهمه، لغتي!

- يجب أن تذهب من هنا، لا تكرر ما فعلناه، كانت لنا حياة وفقدناها في لحظة يأس، هي حياة واحدة يجب أن تحياها.

- لكن...

- أعلم.. القائد ستتعامل معه بقية القطط. يجب أن نمضي الآن وإلَّا علقت هنا، لا تود أن تحيا حياة خلقت لغيرك! عظيم نحن بجوار البئر، هذه هي وسيلة الانتقال، حاول أن تفك يدك المربوطة.

حاولت جاهدًا فك يدي، بقيت عقدة واحدة لا أعرف حلها، قضمتها هي بأسنانها.

- ماذا أفعل أنا؟ ومن أنتِ؟

- تقفز في هذه البئر، دون تفكير وبسرعة! أما أنا فهي حكاية طويلة.

- هذا جنون!

- وهل ما نحن فيه يبدو عاقلًا بالنسبة إليك؟ اقفز!

قفزت في البئر، وتبعتني القطة البيضاء، وكالمرَّة السابقة لم تأخذ الرحلة سوى دقائق، رأيتها تبتسم لي في هذه الدوَّمات،

t.me/qurssan

وتُنير بلمعان عينها ظُلمة البئر، أقول من أنتِ بصوتٍ عال؟ أرددها كثيرًا، لكنها تبتعد عني، تضغط الحجارة أكثر تكاد تبتلعنا، رغم هذا أنادي عليها سائلًا من أنتِ؟ حتى وجدت نفسي ممدَّدًا على أرضية الشارع، وبجواري عدد كبير من القطط، والقمر يغادر في هدوء، وهي تموء ناحيته.

***

t.me/qurssan

السعد أحمد عبد العظيم

t.me/qurssan

t.me/qurssan

في يـوم انتبـه لفكـرة، أن العمـر مـا عـاد فيـه أكثـر مـن الـذي انقـضى، كانـت المـرَّة التـي يجـد فيهـا نفسـه يتحـدث عـن حياتـه، كأنهـا مـاضٍ.

السـعد أحمـد عبـد العظيـم، يبلـغ مـن العمـر تسـعًا وسـتين، في نظـر الكثـير عفـيٌّ، لم يخنـه الزمـن بعـد، وفي نظـره أصبـح عجـوزًا كركوبًـا، مكانـه محـل خـردوات، قـد باتـت النسـاء تـراه خـارج الخدمـة، لم يعـد يسـمع صـوت أزيـز السريـر، ولا يـرى نفسـه يحـث الخُطـى، بـل رجلـه مرتعشـة تقوَّسـت، كـما انحنـى ظهـره، ورغـم كل هـذا، البعـض يـردد سرًّا وعلانيـة أن السـعد شـاب أكثـر مـن الشـباب، ولـو أن لـه أولادًا لشـاب شـعرهم قبـل أن يشـيب هـو، لكنـه غـير مقتنـع بكلامهـم، ولا بتلـك النـبرة الممتلئـة بـشيء مـن الحسـد.

فريـدة زوجتـه، غادرتـه إلى رب رحيـم غفـور، منـذ عـشر سـنوات، عـرف فيهـم لأول مـرَّة معنـى كلمـة الوحـدة.

كان كلـما جلـس في مجلس يُقـال له أسـطوانة مثروخة: أنجب حتـى لا تُصـاب بالوحـدة، طفـل يحمـل اسـمك حتـى الآخـرة.

ويـرد عليهـم، كيـف أُصـاب بالوحـدة، ومعـي فريـدة؟ هـي بنتـي قبـل أن تكـون زوجتـي، وحبيبتـي قبـل صديقتـي، وأمـي في النهايـة.

t.me/qurssan

دائمًا يتباهى، أنه متزوج من العائلة المالكة، فَيُؤخذ بالسخرية، قائلًا: على اسم الملكة فريدة، فَيربت أحدهم على ظهره، ويضحك آخر في وجهه، ويناوله من هو بجواره سيجارة.

تتحول السهرة للدندنة، فيردد معهم في نغم، كأنه عاد ابن السابعة في كُتَّاب شيخه حافظ، ابن خاله زاهر، وهو يهتز حتى يكاد أن يقع على رقبته فتنقسم، فلا يعود هو ومن معه.

الشلَّة لا يحددها عمر واحد أو حتى قريب، الأعمار متنافرة، والسعد الكبير هنا، عمرًا ومقامًا، هم خمسة، موعدهم كل يوم بعد الثامنة، في هذه القهوة التي تأتي من حقبة عثمانية خالصة، الكراسي الأرابيسك، والساعة الخشبية العملاقة الموضوعة خلف السعد هذا هو مكانه، الأواني المنقوشة بحرفية عالية خرجت من صنايعي خَبز فيها خبرته، الأكواب النحاسية والفضة، الزخارف في كل ركن بخط عثماني حفظ داخله أصالته، لا تستطيع أن تحدد أي طبقة هي رواد القهوة، الشعبية أم الراقية، لا يهم الكل هنا واحد، يشرب كما يشرب غيره، ويضيع وقته في الثرثرة أو لعب الطاولة.

جاءت صينية نحاسية مستديرة، على أطرافها أكواب طُلي جُزءٌ منها بالفضة، فتناولوا الشاي بالنعناع، أسمهان

t.me/qurssan

تقترب من نهاية أغنيتها « ليالي الأنس في فيينا» كان قد كتبها رامي ولحنها فريد، السعد هو ببساطة مُسجل للأغاني القديمة، متخصص في الست أم كلثوم، وعبد الوهاب، وأسمهان، في أوقات فراغه كان يُسمع ضفادعه الصغيرة مع سلحفاته أغانيهم، فيصبح الحضور هم فقط، استقرت الضفادع الثلاثة مع السلحفاة المعمرة، جلسن يستمعن للست مع السعد تغني «حب إيه» كان قد تذكر هذا، حين وصلت أسمهان للنهاية، ودخلت الأغنية التالية بعزف رشيق على آلة العود مع الكمانجات بعد هتاف من الحضور باسم الأغنية «حب إيه!».

يقابله اثنان، ومثلهما على يمينه، كأنهم حواريوه، وهو في الوسط يتم الخمسة.

أنت عارف قبله معنى الحب إيه؟

يسأل السعد شلّته في جدية، وينخلع الجالس أمامه:

- والله ما أعرف!

مشيرًا للجالس يمينه: طب أنت تعرف؟

- علمي علم اللي جانبي، يا عم سعد.

يختصر الألف واللام فيضيع ميزته.

t.me/qurssan

- وأنت؟

- ما سبقش ليا تجربة!

هَمَّ من بجواره أن يجيب، لكن لم يصدر منه إلَّا همهمة، فتراجع قائلًا: «قولنا يا عم سعد، معناه إيه؟».

اتكأ على عصاه الأبنوس المنسابة في رشاقة ورقة، وأغمض عينه قليلًا، فوجد أمامه فريدة في صباها، أول مرَّة رأها، بنت الجيران طيبة السمعة، جميلة الهيئة، ذكية العقل، فهو الزينة، ولم تدم الوقفة في البلكونة طويلًا حتى خطبها، كانت صامته لا تتكلم، تبتسم فقط.

خرج من غفوته، وكانوا جميعًا في انتظاره:

- معرفش، مفيش حاجة محددة، كنت فاكر كده من شويه، بس أقدر أقول إن الحب بالنسبة لي هو فريدة! كل واحد يدور ليه على معنى.

التقط العصا، ونغز من بجواره حتى يحاسب له، وهمَّ خارجًا من القهوة، بداخله قوة غريبة، وشوق وحنين لزوجته.

يناديه من نغزه: «رايح فين، لسّه دور الطاولة، ليَّا يومين متغلبتش!».

t.me/qurssan

- زيارة بقالها عشر سنين متأجلة.

من شاهد السعد في هذه اللحظة، يُقسم أنه شاب في الخامسة والعشرين، يحمل العصا في يده ولا يستند عليها، لا تجاعيد في جبهته، واستقام ظهره، يركل الحصى في الشارع برجله، ويستشعر قوته، من أمده بهذا الأمل رؤيته لفريدة، عشر سنوات كانت الرؤية فيها شحيحة.

خرج من الحارة، وصعد الدرجات الحجرية، كل اثنتين منها بوثبة متماسكة، البيوت على جانبيه متلاصقة بشدة، تخشى أن ينخلع أحدهم، فينهدم الحي بأكمله، الفرارجي عبده أغرق الشارع بمياه نتنة، جاءته بالشتيمة من سكان الحارة، يخرج منديله الأبيض المخطط وقد طُرز بخيط رقيق اسم فريدة، فيمسح عرقه، ويتنهد طالبًا العفو والمغفرة، كانت عمدان النور قد ابتعدت، وتظلم الدنيا شيئًا فشيئًا عليه، حتى لمح من بعيد ضوءًا خافتًا، المسافة بين آخر عمدان وأول عمدان يلوح له، تبلغ مئتي متر، كأنه الفارق بين النور والظلمة.

توقف وهاتف في رأسه يخبره أنه ليس بالوقت المناسب لحضوره، فيرد السعد عليه: «جاءتني ولا أستطيع أن أردها خائبة».

t.me/qurssan

ثلاث خبطات على باب قديم متهالك، فتح صاحب المكان يفرك عينه، ويتأمل السعد قائلًا:

- من؟ السعد أحمد عبد العظيم عندنا!

- مفاجأة يا علي!

- طال عمرها عشر سنوات يا سعد، تفضل.

- لا، أعطني كشافًا، أو أي شيء ينير لي في العتمة.

«دقيقة»، وأحضر له كلوب أناره من سيجارته المشتعلة.

- هات يا علي.

- هاجي معاك، الطريق واعر.

«خليك هنا يا عجوز»، وضحك فبانت أسنانه الصفراء.

أخذ الكلوب في يده اليسرى، وعصاه الأبانوس في يده اليمنى، وعدَّ من اليمين

واحد، اثنان، ثلاثه، أربعة.. أربعة صفوف لا غير.. كانت في الصف الثاني، خُصص للنساء والبنات الصغيرة من قديم الأزل، وباقي الصفوف للرجال، هذه هي تقسيمة المقابر.

t.me/qurssan

قرَّب عصاه من فمه قائلًا: يا رب الذاكرة تشتغل، لحسن الواحد بعافية، فريدة في الصف الثاني مع باقي زميلاتها في المقبرة السادسة، تقدَّم في الصف إلى أن وصل، ووقف أمام مقبرة زوجته ووضع الكلوب على المقبرة من فوق فأنار المكان كله، وقرأ بصوت مسموع: السلام عليكم عباد الله، أنتم السابقون ونحن اللاحقون، قريبًا يا فريدة.

افترش الأرض بشاله، وتربع كأنه في خلوته:

عشر سنين يا غالية، سامحيني، أنا عارف إن رجلي مضعفتش عشان آجيلك، بس أنا كنت رافض فكرة إنك ميتة، وأنا لوحدي في الشقة كنت بشوفك، وأكلمك، ويمشي يومنا تمام زي زمان، الصبح نفطر فول الولا سيد بالزيت الحار مع حتتين بتنجان مخلل، وقرصين طعمية، أشرب معاكِ الشاي الأخضر زي ما قالك دكتور الوحدة، وأنزل القهوة، أطلب شيشة وشاي بالنعناع، سامحيني إني كنت بعمل دا من وراكِ، بس انتِ عارفة يا فريدة، ولما بروح مِش بتقولي حاجة!

بتبوسيني من خدي، وأنا أبوس وش إيدك، ويخلص اليوم واحنا بنتعشى قدام التليفزيون، أو وانتِ بتلاعبيني طاولة في البلكونة، بطلت ألعبها في الشقة من ساعة ما غبتي يا غالية.

t.me/qurssan

مـن خمـس سـنين بـدأت أفـوق، وأعـترف إنـك مِـش راجعـة، عشـان كـده كنـت بنـام في الصالـة، وأنـتِ بتعاقبينـي بعـدم الزيـارة في منامـي.

بـس أنـا شـوفتك النهـار دا، وأنـتِ صغـيرة، أول مـرَّة اتقابلنـا يـا فريـدة، فاكـرة؟

أنتِ سامعاني صح؟

كان لازم ألبـي طلبـك، وآجيلـك هنـا والوقـت، ومسـتناش لبكـرة، حتـى لـو سـاعة متأخـرة، كلـه يهـون في سـبيل إني أشـوفك، واتونـس بيـكِ وأنـا جمبـك.

فاكرة الست يا فريدة؟

الجيران قالـوا عـليَّ مجنـون لمـا كنـت بشـغلك أغانيهـا وانـتِ مِـش موجـودة، بـس همـا معذوريـن ميعرفـوش معنـى الحـب إيـه؟

بس أنا عارف، الحب يعني فريدة، قربها وونسها يقويه.

***

t.me/qurssan

سيرةُ غائب

t.me/qurssan

t.me/qurssan

كانت الغرفة مظلمة، لم يرَ الاثنان إلَّا الوجه، تربع ويتمان مُقلدًا الحلاّج في جلسته، واضعًا يده اليمنى على جبهته، والأخرى كانت تُصدر حركات تخرج من جسده تلقائية، حين بدأ في شِعره.

لم يدر الحلاج وجهه لمسجون معه منذ ليالٍ، إلَّا أن دخوله الحجرة المظلمة الكئيبة كان مُربكًا للكل، مثيرًا للدهشة، لم تكن من ملابسه، كان يرتدي مثل ما يرتدي الآخرون، يتحدث مثلهم، إلَّا أن عين الحلاج سريعة متَّقدة، تعرف الغريب التائه، ويده دائمًا ممدودة، لا يتأخر ثانية عمن له حاجة، وهذا حالته داعية للخروج من العزلة.

- غَريبٌ ها؟

- وتائه!

- من أين أنت؟

- لا أذكر، الأمر مبهم بالنسبة لي، كنت أقرأ في ذاك الكتاب القديم، المتهالك مثلي، ونمت فجأة، ثم صحوت، وجدتني أرتدي هذه الملابس الغريبة، لساني لا أعرفه، يتحدث بلغة مختلفة عما أذكره، أقول الشعر وأجري، عابرًا من مدينة لمدينة، حتى جئت إلى هنا، نمت أمام باب له فتحة دائرية كبيرة، تمكنك من مشاهدة ما يحدث داخل

t.me/qurssan

البيت، بكل بساطة، كنت أنا الوحيد الذي يشاهد، رغم أن المرة كُثر، لا أحد يتوقف ليفعل مثلي، أو ينتابه حتى الفضول، كان بيت قاضي المدينة، في صحن الدار كانت جالسة، تُسرح شَعرها، آه لو رأيتها، شَعرها هذا، طويل جدًّا، تربعت واضعة على حِجرها قماشة، وبمشطٍ أسنانه رفيعة، جذبت ضفيرة، فكتها، ثم حاولت جاهدة أن تسرحه. وبعد لحظات من يأس وحيرة، نادت على سيدة أخرى، لم تكن كبيرة، جسدها كان يافعًا، عيناها واسعتان، ممتلئتان بالكحل، أعطتها المشط، وجلست خلفها، بدأت تمشطه، ولتحل التشابك كانت تضع المشط في كوز جوارها، ثم تخرجه يتقطر منه الزيت، بعد لحظات فقط، شَعرها هذا لم أجد في مثل لمعانه، بدت أنيقة، خصوصًا بعد أن ارتدت ذاك الثوب، لا تنظر لي، كانت مرتدية قميصًا أبيض، ولم يكن شفافًا، ربما كان! الرؤية من هذه الفتحة، وهذه المسافة صعبة. تكرر معي هذا الأمر أيامًا، كنت أنتظر موعد خروجها لصحن الدار، حتى تفترش الأرض، وتضع على حِجرها تلك القماشة، وتحاول أن تمشط لنفسها شَعرها، مستسلمة فتنادي، ماذا كان اسمها، كأنه فاكهة، إذا ناديتها جعت، نعم، جميزة!

- حكايتك طويلة، كرحلتك تمامًا.

t.me/qurssan

- ينادوك بـ...؟

- حتى هذا لا أعرفه، سَمِني إن شئت!

- غريبة، أول مرَّة يدعوني أحد لتسميته! ما رأيك في عشاب؟!

- ها؟

- عشاب، أي من له صلة بالعطارة.

- جميل، كأن له علاقة بأوراق العشب!

- أستطيع الآن معرفة ما الذي جاء بك إلى هذا المكان المنسي.

- نعم، قاضي المدينة كان في سفر، وعاد، وجدني، نائمًا أمام فتحة بيته، أنظر بكل بجاحه لزوجته، تأملني لحظة، فتح الباب الخشبي الكبير، قائلًا بصوت عال: من أنت؟ لم أجب. من أين أنت؟ لم أجب. صاح على عسكره، قائلًا له: خذوا هذا المجنون. ثم جاؤوا بي إلى هذه الزنزانة، الضيقة، المعتمة، التي تصيب البصير بالعمى، مُسلمة إياه للوقت متأرجحًا على عتبته. إلى أي مدى يمكن لي التواجد هنا؟

- إلى أن يموت القاضي، أو تحدث المعجزة!

- أي معجزة؟

t.me/qurssan

- أن تموت أنت.

- كأني ارتكبت جريمة.

- هنا، تحاسب على النظرة، على الكلمة، وما تخفيه نفسك، وما لا تعلمه.

- ما هذا الرعب، كيف تقدرون على العيش هكذا؟

- الناس تعوَّدوا الصمت، وإلَّا وضعوا تحت أعواد المشنقة، كثيرة هي هنا، موجودة بدل أعمدة الإنارة.

- أخبرني أين أنا؟

- بغداد، مقر الخلافة العباسية.

- ومن أين أنت؟ يبدو عليك مشقة الرحلة؟

- من البيضاء، مدينة من مدن فارس بإيران، شمال مدينة شيراز، التواجد هناك صعب، الحركات الانفصالية كثيرة، جزء كبير من إيران تحت حكم السمانيين، ولا حتى بغداد آمنة.

- أنا بلادي بعيدة، بيني وبينها أزمنة.

- تسمح لي بالجلوس، تصعب رؤيتك، الغرفة معتمة.

- تفضل، المكان ملكك، لا أملك شيئاً هنا، إلَّا هذه الكومة.

t.me/qurssan

- ما هذه؟

- خذ، اقرأ، علك تفقه!

- هـذا خطـك؟ تكتـب فيـه مـن مـدة، كأنـك تحملـه مـن مسـافة طويلـة.

- مـن اليـوم الـذي اعتقلـت فيـه، وأنـا أكتـب هـذا الكتاب، لم أنـم ليلـة إلَّا وأحمـل عـبء كتابته.

- كتابك الأول؟

- لا لا، بكتـابي هـذا، يبلـغ مجمـوع مـا كتبتـه تسـعة وأربعـين، آخرهـم كتـاب في السياسـة، عنوانـه (الساسـة والخلفـاء والأمـراء) وأهمهـم، وهـذا أخشـى أن يكـون آخـر مـا تخطـه يـدي، في هـذه المحنـة.

- لا تحمل نفسك أكثر من هذا.

- كل ليلـة حـين تغفـل عينـي، بعـد أن تأبـى يـدي الكتابـة، أحلـم بهـذا الحلـم، أجـدني في ميـدان عـام، وجمهـرة كبـيرة، قـد عُلقـتُ مـن رقبتـي بحبـل، لثـلاث ليـالٍ، تـأكل الطـير منـي، حتـى صرت جيفـة.

- بـدأت أتأكـد أن هـذا المـكان قـادر عـلى تحويـلي إلى جثـة حيـة.

t.me/qurssan

- قريبًا يا صديقي في العتمة.

- قل لي، ما اسم الكتاب، أم لم تستقر بعد؟

- الطواسين!

- ما معناه؟ وما غايته؟

- في القرآن الكريم، ثلاث سور متتالية، الشعراء والنمل والقصص، تبدأ بـ«طسم»، ثلاثة حروف، لا حرف، هو أحد عشر نصًّا، كتبته عن الإلهامات والآيات. من أراد الكتاب هذا خطابي، فاقرأوا واعلموا أني شهيد.

- تعرف، لطالما أفنيت نفسي في كتابة الشعر يا سيدي، حتى تنميت يومًا أن أصبح شهيده.

- الآن أعلم من أين اكتسبت هذه الغاية.

- تهت في بحارك، وإلى الآن لم أعرف اسمك.

- لم أكن أعرف أن بحاري واسعة، حتى تصلح للتيه.

- اسمي الحلاج.

- ليس غريبًا عليَّ، أعرفه، كما أعرف الطبيعة، كما أعرف الكتابة.

- ما رأيك في هذه الظلمة يا عشاب؟

t.me/qurssan

- بالنسبة لي: كل ساعة في الظلام والنور تُعد معجزة،

بالنسبة لي كل بوصة مكعبة في هذا الكون تعد معجزة.

- نعم يا صديقي، مَا حيلَةُ العبدِ والأَقدَارُ جَارِيَةٌ عَلَيهِ في كُلّ حَالِ!

- الهجرُ صعبٌ يا حلاج، هجران الأمكنة، والزمان، هجر الحبيب بالأخص.

- اسمع مني يا عشاب هذا:

وإنّي -وإنْ أُهجِرتُ- فَالهَجرُ صاحِبي

وَكَيفَ يَصِحُ الهَجرُ وَالحبُّ واجدُ.

باب الزنزانة يُفتح، شخص ضخم الجسد، شاربه معقوف، ينادي:

- يا حلاج!

لا إجابة

- غدًا محاكمتك أمام الملأ!

بسرعة أُغلق الباب، وعادت الزنزانة مظلمة.

- هل هذا صحيح يا صاحبي؟!

t.me/qurssan

- قد قال، إذنْ صحيح.

- وما العمل؟

- غبتَ، وما غِبتَ عَن ضَميري

فَمازَجتْ تَرْحَتي، سُرورِي

- هل لنا لقاء؟

- واتصل الوصلُ بافتراقِ

فصار في غيبتي حضوري.

***

t.me/qurssan

الفهرس

فكرة ظلٍّ ما..... ٩
موت نجمت..... ١٩
بَيت العجوز..... ٢٩
لحظة في حضن الحياة..... ٤١
بقايا ضوء..... ٤٩
عيد الميلاد السابع عشر..... ٦١
العَمّ إبراهيم ونعناع السِبيل..... ٧١
رُوحِي مَقْبَرَةٌ..... ٨١
سمكةٌ في حَجم ورقة الخس..... ٩١
ليل قابلة..... ٩٥
مريض عَنْبَر رقم ستة..... ١٠١
إعلانٌ عن قلبٍ وحيدٍ..... ١١٣
كوبري سيدة..... ١٢١
بيسوا وأنا..... ١٢٩
عين القطة..... ١٤١
السعد أحمد عبد العظيم..... ١٥١
سيرةُ غائب..... ١٦١

t.me/qurssan

إعلان عن قلب وحيد وجدته مُعلقًا على بعض الجدران في الشارع، عبارة عن ورقة بيضاء مكتوب في منتصفها، قلب وحيد ورسمة لقلب منكسر، لم أجد توقيع، ولا أي معلومة أو وسيلة تدلني على صاحب الإعلان.

ألتقط الورقة، عائدًا للمنزل أفكر كثيرًا في شأنها!

أقول في سري: إن كان صاحب الإعلان لا يريد أن يعرفه أحد، أو يقابله، فلماذا علق هذا الإعلان من الأساس؟

الشوارع ضيقة، النفوس كذلك، الناس تصاب بالملل كثيرًا هذه الأيام، الناس بحاجة إلى الأمل، حتى هذا أصبح بالنسبة إليهم مجرد سراب.

الخوف من التجربة ونتيجتها جعلوا الناس أكثر توقًا للعزلة!

يا الله كيف نشعر بكل هذا التناقض، ولما لا نحصل على ترتيب بداخلنا، لما هذه العشوائية المسيطرة على الحياة؟

الكنزي
ALKANZY
t.me/qurssan